





多い。

تالیف دیرموند سینوارین

تقسديم دائي د. جسما درم دائي

ترجمکة 10AL. يحسيى حسقى

يئة العامة لكتبة الأسكندرية	الھ
12.2 in in it is in i	رقيم ا
3.11/4/9/	رقهم ا

دارالمہارف_

هذا الكتاب

لم يستطع معول التنظيم الغشوم، ولا أكداس العمارات الشاهقة المسلحة بالأسمنت، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالأسمنت، ولا أحياء حجارة الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان، شقًا إلى القلب كالطعنة النجلاء أو لفًا على الجوانب، غلافًا فوق غلاف، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس يد عمياء متلهفة على التقليد - لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون - هبة لها من حضارة الشرق، ونفحة من سماته، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديه، إن كنت تأنس لجمالها حين يطوف به خيالك إذ هو بالأمس في قصره، في عز مجده فإنك أشد أنسًا به وأنت تزوره اليوم فتراه منكمشًا

منزويًا في صومعته. بقى من الثمرة سر الحياة والديمومة في نواتها الصلبة، هيهات أن تتحطم، إنها صلابة الدفاع المستميت في آخر خندق، وهذا التجمل بالستر إذ الود فاتر ومنسى أشد نبلاً من أريحيتها وإغداقها إذ هى مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة..

لم تستطع الأسطح المتعالية يومًا بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة، باقية هي ناجية بشممها وشموخها، ولا الضجة الهائلة التي اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه المآذن، يخشع لها القلب وتطرب الأذن عند مولد كل فجر..

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ، آية في فن العمارة، في ذروة الصدق، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال، تحكى في صمت قصة آلاف من الفنانين بناة الحضارة عملوا في ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف أسهاءهم أحد، ولا يذكرهم أحد، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم، جزاؤهم عند رب لهم عليم..

وأسواق لاتزال متشبئة بأمكنتها، كأن لها جذورًا

ضاربة إلى الأعماق، هيهات أن تنقصف أو تدوى، شاخت ولكنها لا تزال متشحة بأطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها. تغير عن يمين، عن يسار، من حول كائن واحد لا يتغير، ابن البلد، بكرمه ومروءته، بلطفه وظرفه، ببشاشته وخفة دمه، بنكاته وقفشاته، بدكائمه وحضور بديهته، هو الذى رقق العامية على لسانه وأثر اهما بأبدع مجاز واستعارة، ساخر وحكيم، تحسبه لطيبته غرًّا ولكنه «حويط»، يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة من بين عمله كثيرة زائفة ولو براقة، لا ينطلي عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح.

هذه هى القاهرة، إن كنت لا تعرفها يا أخى فاعرفها، إذن ستحبها، ستعشقها، ستنضم إلى زمرة عشاق لها كثيرين، هاموا بها ولاء والتحامًا، منذ أن ألقى في نهر النيل عقدها ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصرورة في منديل، عشق بالغريزة، بالإرث، بالقسمة والنصيب والحمد لقدر لا تعلل تصاريفه.

لم أعرف عيدًا قسوميًّا تمثمل لى فيه لقماء موعود مع

حبيب كالعيد الألفي للقاهرة، بلدى الـذي ولدت فيـه، ونشأت في أحيائه العتيقة الشعبية، تحس أعصابي قبل عقلي بمقدم العيد، وددت أن أشارك أهلي في الاحتفال بـــه فساخترت أن أتـرجم لهم عن الانجليزيــة كتابًــا إن صدر سنة ١٩٦٥ فهو لا ينزال - بقدر علمي - من أحدث الكتب التي ألفت عن القاهرة. كتبه ديزموند ستيوارت الذى يتكلم العربية وتعرفه أوساط الصحافة عندنا لأنــه عمل بها وأقام بيننا طويلًا، وله في بلده إنتاج أدبي، متعدد متنوع. اخترت كتابه لأنه صغير الحجم، ملمـوم، فصولـه محددة أجمل تحديد، موصولة ببراعة، أرجو أن تلحظ كيف كان أول تناوله للقاهـرة من ناحيـة طابعهــا الصحراوي لأنها – بـل الـوادي كله – في حضن الصحــراء، ثم من ناحية طابعها النهرى، ثم يمضى يساير التاريخ في فصول يأخذ فيها اللاحق من السابق..

وأحب أن أنبهك أن هذا الكتاب هو كلام أجنبي، المقصود به خدمة زائر أجنبي يقدم إلى بـلادنا لأول مـرة، فالحديث له لا للمصريين. لا تضق ذرعًا إذن بمعلومات

وردت بــه هي غير مجهــولة لــك، بل لعلك تجــد متعــة في مقارنة دلالتها عندك بدلالتها عند المؤلف، لذلك فإنه يرسم لهذا الزائر طريقه إلى المساجد والكنائس، ويقيس له زمن المشوار مشيًا بالساعة والدقيقة، ويحدد له أسعار فنجمان القهوة وقبطار حلوان ودخول المتباحف، ولكنمه يقتصد في هذه الإرشادات العملية ويتخذ طريقًا وسطًا، فلا يتسم بهذا الجفاف العلمي الذي تجده في مؤلفات فقهاء الآثار، ووقـوفهم الطويـل أمام الأحجـار والعقود والمقرنصات، (وضع الأجانب مصطلحات العمارة ونحن لا نزال في حيرة لا نستقر على مصطلح نستخدمه. في التأليف أو الترجمة) ولا يتسم الكتاب كـذلك بـالجفاف التجاري الذي تجده في كتب دلالة السياح، ولم يقصد المؤلف أن يقدم لنا في صورة مختصرة معلومات كثيرة استقاها من المـراجع، وإنمـا أراد أن يحكى بأسلوب أدبى للزائر الأجنبي (وقد افترض فيه هيــامه بــالفن وجوانب الطرافة في الحي والجماد) ما أحس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض أحاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية التي استمدها من مراجعها

الوثيقة، إنه رأى الألوان وأطياف الألوان وشم الــروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والأسطح والجمدران وأكوام القمامة، كم كنت أود أن يكتب كمل أديب كبير عندنا عن القاهرة ويصف لنا وقعها على نفسه كما فعل هذا الأجنبي، إنك لا تملك إلا أن تحس أنه يحب القاهرة حبًّا كبيرًا، ولكن بقيت مـع ذلك في نفسي من الكتباب أشيباء تململت لهما، أبقيتهما ليكون النص العربي مطابقًا للنص الانجليزي تمـام المطابقـة، وكان من الواجب أن لا تترك بغير تعليق يتولاه من هـو أعلم مني بالتاريخ، ودعني أعترف لك أنني ما تناولت كتابًا لأجنبي يصف فيه بلدى فأراه يلقى عليه نظرة جديدة تعتمد على ثقافة شاملة وتحاول النفوذ بالجس المسرهف إلى السر من تحت السطح إلا تملكني شيء من الحسورة والغيرة، قد يصدني أحيانا عن متابعة الكتاب لئلا أحكم بنفسي على خيابتي وقصور بصري، وهذه هي حيلة العاجز المعتذر مع ذلك بأن نيته في النهوض صادقة، والنية بـ لا عمـ ل كالبندقية بلا رصاصة، فأبناء بلدى هم عندى أولى الناس يفهم بلدى وخدمته، لن أتخوف – شأنى مع الأجانب –

شبهة التجنى عن سوء فهم، أحيانًا عن سوء قصد، ثم أعود للكتاب وأنا أقول إن الأجنبى أقدر من ابن البلد على الرؤية لأنه ليس مثله ضحية الألفة المستنزفة لجدة الانتباه والعجب، المفضية إلى عناق تموت فيه اللهفة وإن بقى الحب، وأشهد أن ديزموند ستيورات أرانى لأول مرة أشياء كان يقع عليها بصرى من قبل ولا أنتبه لها.

ونحن الآن نحتفل بالعيد الألفى للقاهرة، الأم التي نحلف بجمالها وننعم بحضنها، سنقرأ ولا ريب أعمالا بديعة تتحدث عن التاريخ والآثار والعمارة والخطط وتراجم الأعيان، ولكن الذى أبحث عنه هو كتاب يتحدث عن القاهرة حديث عاشق عن عشيقته، حديث إنسان حى عن إنسان حى ينفرد بملامح ثابتة وإن تقلبت ثيابه. لن يخط هذا الكتاب قلم مؤرخ أو عالم آثار، بل قلم أديب ابن بلد، أو قبل قلم شاعر كتب بالنثر، والعجيب أنني وجدت ضالتي لا عند أديب أو شاعر بل عند صديقي الأستاذ عبدالفتاح عيد، نابغة فن التصوير الفوتوغرافي في بلدنا، فإن لوخاته عن القاهرة شعس الفوتوغرافي في بلدنا، فإن لوخاته عن القاهرة شعس

ونغم، وحس مرهف، وفيض حب كامن في أعماق القلب. وكم كنت أتمنى أن يصحب الاحتفال بذل جهبود كبيرة للتعريف بالقاهرة والحض عـلى حبها، أتمنى أن تنـظم لَنَا جولات صباحية أيام العطلة مشيًا على الأقدام، بالمجان، في صحبة عالم آثار لا دليل سياح، يشرح ويفسر. جهود أخرى للمناداة بصيانة الآثار الإسلامية في ذاتها وفي نوع الجيرة من حولها، وإثارة الاهتمام بفن العمارة، فمن العار أن لا تصدر مجلة للعمارة في القاهرة أم العمارة، والمطلب من هذا كله هـو حث المعماريـين عندنــا عــلى الوصول إلى طراز يلائم طبعنا وجونا، ويستمد من تراثنا، فها أشد ابتلاءنا بعمارات مستوردة لا تناسبنا، نــذل يها وتذل هي بالغربة عن مواطنها، لا تنفعنا كما نفعت أهلها، فالشقاء مزدوج متبادل..

یحی حقی

معتديمة

القاهرة الكبرى دراسة في جغرافية المدن

بقلم: د. جمال حمدان

إذا عدت المدن العواصم العظمى في العالم، فالقاهرة واردة بالتأكيد في العشرة الأولى أو العشرة ونيف. وهي المدينة الأولى – المطلقة – في قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى آفاق القارة الأفريقية إلى تخوم الألب ووسط آسيا. بل إن بضعة لا يستهان بها من الدول الأفريقية لتقل سكانًا – سكان كل منها أقصد – عن حجم القاهرة كثيرًا أو قليلًا، وذلك حتى دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف

سكان العواصم الأفريقية الخمسين مجتمعة!

وإن حصرت العواصم المخضرمة العريقة في المدنيا، فلعل القاهرة (وأسلافها أو بأسلافها) هي أم المدن جميعًا، وعلى أية حال فقليلة جدًّا هي المدن التي يمكن - كدمشق - أن تنافسها في هذه الصدارة، وحتى نتمشل هذا البعد المزماني السحيق بشيء من التجسيد المذهني، يكفى أن نقول إنه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من عواصم غرب أوربا، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم الجديد مجتمعة.

أما إذا اعتبرنا الوزن الحضارى والنفوذ السياسى والوقع والإشعاع القومى والفكرى، فها من عاصمة فيها نظن لها فى دولتها ما للقاهرة من ثقبل ومركزية طاغية وسيطرة أو توجيه، بل وإلى حد الإفراط ربما. ولقد يختلف علماء المدن حول السؤال القديم؛ هل العواصم هى أكبر وخير مايمثل ويجسم روح بلدها وكيانه، وذلك باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره وأقاليمه، أم هى بطبيعتها العالمية الكوزمو بوليتانية بالضرورة وبما تضم من

جاليات وأجناس أجنبية وبما تتطلع دائبًا إلى الخارج تؤلف بينها طبقة «كاستية» خاصة من المدن في العالم أشبه ببعضها البعض منها بصميم أقطارها المحلية؟ مهما اختلف الرد، فلا خوف في حالة القاهرة، ولا يكن له أن يقوم، فهاهنا عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز إلى جوهر كيانه حضاريًّا وماديًّا، جغرافيًّا وتاريخيًّا، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى.

هذه إذن هى القاهرة: تاريخ مفعم مجمد أو محفوظ كل حجر فيها مشبع بعبق الماضى وعرقه، كل شبر منها يحمل بصمات الإنسان. إنها - كبيت جماعى كبير، وكمنطقة مبنية لا مثيل لكتلتها في مصر - عمل فني من مقياس ضخم مهندسه وساكنه هو المصرى، وهى بهذا أكثر أو أكثف رقعة من اللاندسكيب الحضارى في مصر «تبشيرًا» وحملًا للطابع البشرى، وبنفس الدرجة أبعدها عن ملامح الطبيعة الخام واللإندسكيب الطبيعي الغفل للوادى..

ورغم هذا كله، فإن القاهرة من أسف من أقسل

العواصم حظًّا في دراسات المدن العلمية الحديثة. كثيرة هي لا شك الكتابات الأكاديمية والشعبية المتاحة عن هذه المدينة الخالدة، ولكن الغالب عليها إما التاريخ عمومًا أو تاريخ العمران أو الآثار خصوصًا. وربما أضفنا بعض كتابات «هواة المدن» من الرحالة أو الأدباء أو الصحفيين، لاسيا منهم الأجانب.

أما دراسة المدينة ككل حى متعضون فوار محدد السمات والقسمات، كمجتمع مركب متلاطم مضطرم يضطرب في وعاء جغرافي واضح المعالم بارز التضاريس، أما دراسات علم اجتماع المدن وجغرافية المدن بوجه خاص، أما مورفولوجية القاهرة الكبرى، تركيبها الوظيفى، أيكولوجيتها البشرية، نموها السكاني وزحفها العمراني وضوابطه، هيدرولوجية النقل ومشاكله الخانقة المختنقة، الطبوغرافيا الاجتماعية والتوزيع الجغرافي للطبقات والحرف، إقليم المدينة وحدوده، التخطيط للستقبلي ومؤشراته. النح، أما هذا كله فمازال فراغا مقلقًا وأرضًا بكرًا (ولا نقول مجهولة) منذ ظهرت أول

وآخر محاولة جادة في هذا الميدان الضخم، ونعني بها دراسة كليرجية (١) في الثلاثينات، والتي دفع بها نمو العاصمة المدى الانفجارى الحديث إلى زوايا المكتبة التاريخية بدرجة أو بأخرى.

والكتاب الحالى الذى نقدم له بين يدى القارئ نموذج شيق وطريف بل وبارع لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الأجانب هواة المدن النين يحاولون بذكاء أن يستقطروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية، مدعمة بقراءة واسعة في التاريخ والتراث تترامى من الفولكلور إلى اللغات، ومن الدين إلى الأدب، ومن الجغرافيا والاجتماع إلى العمارة والهندسة. إلخ.

ولقد يختلف القارئ مع بعض الأحكام والنظرات التي أوردها المؤلف كأجنبي عابر، فهذا أمر لا مفر منه وتلك عمومًا نقطة ضعف الكاتب الأجنبي أيًّا كان ومها

Marcel Clerget, Le Caire, Etude de Géographie Urbaine et (\) d'Histoire Econ omique, Le Caire, 1934, (2 vols.).

حاول، ولكن من المحقق - بالمقابل - أننا سنلمس لمسًا نقطة القوة وميئزة العين الأجنبية النافذة الثاقبة ترى وتلتقط من اللمحات الشفافة واللفتات الدقيقة اللماحة ما قد أخفى الألف عن عين صاحب الشأن نفسه حتى غاب عنه أو كاد.

الكتاب إذن - فى كلمة - قصة رحلة وعرضها زيارة. رحلة فى الزمان والمكان، طولها مدينة وعرضها زيارة. ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك، وممتعة وجذابة إلى ذلك. إنه سياحة بلا دليل، وتاريخ بلا أرقام، وجغرافية بلا خرائط، وهندسة وعمارة بلا لوحات، واجتماع بلا نظريات، وأيضًا سياسة بلا شعارات: قل باختصار: علم وثقافة بلا دموع، كما يعبر الأوربيون.

نعم، بلا دموع. ومن هنا بالدقة تبدأ مهمة هذه المقدمة. ففي تصورنا أن مثلها - لا سيها ونحن نحتفل بالعيد الألفى للقاهرة - ينبغى أن يوفر الأساس العلمي الصلب، والقاعدة المادية والفيريقية لهذا البناء المدنى الشامخ المعقد والمتعدد الأبعاد. فلعل من المفيد للقاهرى

ابن العاصمة، وللمصرى أبى العاصمة، فضلا عن أخيها العربى، أن يكون لنفسه خريطة ذهنية مبسطة تلم شتات مدينته المترامية وأطرافها في صورة اختزالية متكاملة دالة وهادفة، تؤكد الخطوط العريضة في هيكلها وتكمل خبرته اليومية ومعايشته الجارية لأحيائها وحياتها.

لتكن هذه، إذن وبعبارة أخرى، مقدمة مبسطة في جغرافية المدينة، تحلل الأساس الطبيعى الذى تقوم عليه العاصمة موقعًا وموضعًا، وتتتبع نموها العمرانى في ظاهرها وظهيرها، وكذلك خطتها الهندسية وكتلتها المبنية، ثم تحدد وظائفها وتوزع طبقاتها الاجتماعية وأقاليمها التركيبية، وقد تعاليج أهم مشاكلها واختناقاتها. وكثير من هذه وسلفعل جوانب عرض لها الكتاب بصورة أو بأخرى.

أما عن الترجمة والتعريب فلسنا بحاجمة -أحسب-إلى الوقوف عندها طويلًا أو قصيرًا، وهي من قلم واحد من سادة الأدب والفكر وعمالقته المعدودين في مصر، ذي سلطان عظيم على لغتى الأصل والنقل معًا بل وعلى الثقافتين العسربية والغسربية عملى حد سسواء وعلى أرفسع المستويات. ثم إن أمر هذه الترجمة متروك للقارئ نفسه، فهي مكافأته الحقيقية - كما أثق- في هذه الرحلة الشائقة. وحسبي هنا أن أشهد مخلصًا أنني قطعت شوطًا كبيـرًا في مطالعة النص وأنا أظنه تأليفًا ودون أن أفطن إلى أنه عمل مترجم، وهذه ولا شك أكبر شهادة لأى ترجمة ومترجم. فأنت هنا تشعر أنك تقرأ لصاحب «القنديل» بأسلوبه، بجمله التأثيرية ووقفاته ولزماته، بكل خصائصه ونكهته، كل أولئك في أمانة وولاء للنص الأجنبي هما أول ما يطلب في تبرجمة. وهناك كما يقال من إذا ألفوا ترجموا، وإذا ترجموا ألفوا، ولكنك هنا أبعد ما تكون عن هذا. على العكس تمامًا، ستجد التزامًا أمينًا بالنص حريصًا على روح المؤلف، ولكن دون أن ترتطم قط بتلك التراكيب الفجة أو التشويهات والاهتـزازات التي تسقط فيها عبودية الحرفية.

الموقع والموضع

والموقع هو ذلك الإطار الجغرافي الكبير الذي تحدده العلائق الكانية العريضة والقيم الإقليمية النسبية التى تتعدى كثيرًا جدًّا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل إلى أبعاد قارية برمتها. لذا فهو فكرة متغيرة على العصور، وبالتالى فقليل من المواقع ما يعد خالدًا في التاريخ. أما الموضع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التي تقوم عليها الكتلة المبنية مباشرة، وهو لا يتغير إلا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها إلى رقعة أخرى.

والقاهرة تحتل موقعًا فريدًا في مصر وخارج مصر. ففي إطار التقاء الدلتا بالصعيد، في عقدة الوادى وصرته، موقع حتمى خالد ظلت العواصم تدور فيه، قد تنتقل من موضع إلى موضع، ولكنها لا تخرج عنه إلا في فترات عابرة - وربما قيل شاذة - في التاريخ القومى، مثله في هذا مثل خاصرة الرافدين في العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل إلى قطيسفون إلى بغداد، ومثل

تمونس على رأس البلد وعلى خاصرة البحر المتوسط حيث تناسلت أو تناسخت قرطاجنه وتنس وتونس.

فموقع القاهرة إذن هو خاصرة مصر، مجمع الوادى والفرعين، وملتقى الصحراوين، كأنما القطر كله على ميعاد فيه. ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسي. فمن منف الفرعونية (في منطقة البدرشين حالبًا) إلى أون أو هليوبوليس (عين شمس ومصر الجديدة الآن) إلى بابليون (مصر القديمة) إلى الفسطاط العربية ثم إلى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية - كل أولئك حلقات متباينة في سلسلة بغرافية أو نسل أقليمي واحد أساسًا.

وإذا كانت العاصمة قد عرفت اطارًا إقليميًّا مختلفًا ومتطوحًا أكثر من مرة، كطيبة (الأقصر) في الجنوب الأقصى، وأفناريس قاعدة الهكسوس في شرق الدلتا، والاسكندرية البطلمية الرومانية، فإنما كانت الأولى في المرحلة التكوينية للدولة المصرية، وكانت الثانية انحرافة غزو أجنبي بحت، بينها أتت الثالثة انحرافة استعمارية

لامبراطورية بحرية على الجانب الآخر من المتوسط، وظلت حينًا أشبه بجزيرة غريبة من الأرخبيل اليونانى نقلت وألصقت بالساحل المصرى سياسيًّا وبشريًّا.

والانتقال من منف إلى الفسطاط يمثل نقطة انتقال من هامة في التوجيه السطبيعي والسياسى: فهو انتقال من الضفة الغربية إلى الشرقية، ويشير إلى أن منف، التي كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلها كانت أسهل اتصالا بالصعيد (حيث المعمور الزراعي يقع في سواده الأعظم على ضفته الغربية)، كانت عمومًا أدنى إلى التوجيه المصرى المحلى..

أما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقًا مع توجيه الفتح العربي الجديد، الذي هو نحو الخارج أولاً وبرى الطابع ثانيًّا، وذلك بعد أن أصر الخليفة عمر على قائده عمر و «ألا يجعل بينه وبين المسلمين ماء»، فاختار موضع الفسطاط بدلا من الاسكندرية ومن الجيزة كما كان البعض قد اقترح عليه. ومن هنا أصبحن الفسطاط في موضع أشبه بالكوفة والبصرة في العراق، كلها ترسم

مروحة حول رأس الجزيرة العربية، وكل منها يقع على نهاية واد صحراوى يخرج منها أو قسربها وينتهى إلى ماء نهر كبير ولكن أساسًا دون أن تعبره.

من هناك أيضًا بدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر أمام الفسطاط - لاحظ اشتقاق الاسم من الاجتياز والمجاز - أى همزة الوصل بين العاصمة والصعيد، وورثت بذلك ظل منف - الظل فقط - ولذا ظلت دائبًا وحتى بدايات قرننا هذا حلة صغيرة مجمدة. وفي هذا الدور كانت جزيرة الروضة أشبه بنصف جسر طبيعى بين الجيزة والفسطاط، يكمله عادة نصف آخر معلى من السفن الثابتة.

ومن الضرورى هنا أن نذكر أن موضع الفسطاط فيها هو اليوم نهاية مجمع القاهرة المدنى جنوبًا إنما يمثل ما كان في حينه أضيق - وأسهل - عبور للنهر بين ضفتيه، في عصر كان النهر يمثل حقبة مواصلات لا يستهان بها. ذلك أن شاطئ النيل الشرقى لم يكن يتبع حده الحالى، بل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو

الشمال الشرقى إلى قلب القاهرة الحالى فى الشمال، بحيث كان الثلث أو المثلثات العربى من الرقعة الحالية تقريبًا ماء وجزءًا من مجرى النيل.

ومعنى هذا أيضًا أن الضفة الشرقية لم تكن بمثل منها يمثل إضافة لليابس تكونت بالتدريج عبر القرون اتساعها الحالى، بل كانت أقل مساحة، والمثلث الغربى نتيجة لإرسابات النهر الطميية، بينها أخذ النهر نفسه يتراجع نحو الغرب بانتظام، وهذه هى الحركة التاريخية التي تعرف بهجرة مجرى النيل نحو الغرب. أما تلك الأرض التي انحسر عنها النهر فلم تكن ناضجة فيزيوغرافيًا على الفور، وإنما ظلت مواطئ رطبة تملؤها البحيرات والخلجان والمضاحل ولا تصلح للسكنى والتعمير إلا بعد قرون من الإرساب والنضج والصلابة. فمثلًا لم تظهر منطقة الأزبكية كأرض صلبة إلا منذ الفاطمية، ومنطقة باب اللوق إلا منذ الأيوبية.

وعند هذا الحد، يمكننا أن نكون تصورًا عريضًا لموضع منطقة القاهرة عامة. فالضفة الشرقية تحدها سالاسل تلال تقترب من النهر في الجنوب وتنفرج بعيدًا عنه كلما المجهنا شمالاً هي جبل المقطم الذي ينتهى في الشمال بالجبل الأحمر قرب العباسية. وحواف هذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ متر في الجنوب، ٨٠ مترًا في الشمال. وتخرج من السلسلة عدة بروزات ناتئة نحو العرب كتلول ثانوية هي من الجنوب إلى الشمال تلول عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة.

فإذا عرفنا أن شاطئ النيل هنا يقع عمومًا على منسوب نحو ٢٠ مترًا، أدركنا أن الضفة الشرقية، التى تتسع كالمروحة شمالاً وتضيق جنوبًا، يتحدر سطحها كلما اتجهنا من الصحراء إلى النهر، أى أن القطاع الشرقى منها مرتفع والغربي منخفض (كلمة بولاق مشلا أصلها بلاق وتعنى لغة «الأرض المنخفضة»، بمثل ما أن الشرقى أقدم جدا في تكونه بينها الغربي أحدث ويزداد حداثة كلها اقتربنا من النهر.

وعلى العكس من هذا الضفة الغربية، فليس ثمة خائط تبلى، بل تمد الأرض النزراعية حتى هامش

الصحراء، والأرض تنحدر لا نحو النهر بسل نحو الصحراء ولكنم انحدار طفيف جدا لا يقدر الصحراء ولكنم التحدار طفيف جدا لا يقد إلا بالبوصات حيث يصل في الضفة الشرقية إلى عشرات الأمتار، إلا أنه مع ذلك واضح للعيان كما يكن للناظر أن يرى من فوق كوبرى الزمالك تجاه ميت عقبة.

وترتيبا على ذلك كله، فإن أرض الضفة الغربية سهلية منبسطة بعامة وكلها كانت أرضا زراعية، بينها الشرقية منحدرة تصلها نهايات الأودية الصحراوية والتلية التى تعرف السيول الشتوية المفاجئة والتى يعرفها أكثر سكان الأحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين بتحول شوارعهم المائلة إلى خنادق مائية مؤقتة. وبينها تمتد شوارع الضفة الغربية (باستثناء طريق الهرم) كطرق مسطحة موحدة المستوى، ينفرد القطاع الشرقى من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول إلى درج حقيقى يذكرنا بشوارع المدن الجبلية في أوربا وبخاصة حوض البحر المتوسط.

أخيرًا وعمومًا، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة إذا وضعت في الميزان؟ ثمة ميزايا لاشك واضحة. فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتيل، وهي مفتوحة من الشمال فقط. ثم ان وجود التيلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر مثلها يوفر لها النهر خامة الطوب. وارتفاع القطاع الشرقي يعوض عند البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحي وحركته النشطة المنشطة، في حين يتمتع القطاع الغربي بجبهة مائية منعشة ومرطبة. وأخيرًا فان كشرة الجزر كثرة غير عادية في المنطقة - كنتيجة لتغير مستوى الارساب فجأة مع الانتقال من الوادي الضيق إلى الدلتا الواسعة - هذه الكثرة توفر قواعد هامة لعبور النهر ولنمو المدينة.

نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

في هذا الإطار الطبيعي الملائم إذن نستطيع أن نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربي. حين نشأت

الفسطاط في أقصى الجنوب، قرب النهر والتل معًا، فإنما كانت مدينة حربية أساسا، تنشد موضع حماية معلقــا على التل ومحصنًا بالطبيعة. فكانت في النتيجة مدينة أكروبوليس، أي مدينة قمة تل. (ومن الطريف، وهو) بالتأكيد أكثر من صدفة، ان ديزموند ستيوارت مؤلف هذا الكتاب يذهب إلى حـد تشبيه جـامع ابن طـولون عـلى جبله بالبارثينون على الأكروبول في أثينـــا!) وحين بنيت العسكر إلى الشمال الشرقى منها، ثم القطائع على جبل يشكر في نفس الاتجاه، وأخيرًا القاهرة المعزية التي بدأت كمدينة ملكية محرمة، فإنها لم تغير تلك الصفة الأكروبولية العسكرية أساسًا، فكانت جميعها تلتـزم السفوح التليـة العالية في الشرق، وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبة. وكل مــا حدث أنها كانت تزحف في موضع جنوبي إلى موضع أكثر شمالية.

ومن الطريف، ما دمنا قد تحدثنا عن المدينة المسورة وسور المدينة، أن نلاحظ أولا أن مصر في هذا الصدد شذوذ عالمي نادر، وثانيًا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر في

مصر نفسها.. ففي العصور الوسطى وعهد الإقطاع كانت المدينة المسورة هي القاعدة العالمية طلبًا للحماية من الأخطار الخارجية والصراعات الإقطاعية الداخلية. ولكن حالات ثلاث فقط في العالم لم تكد تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الإقطاعي منذ وقت مبكر: تلك هي بريطانيا واليابان ومصر وكلها جزر حقيقة أومجازًا على ضلوع قارة يفصلها عن بحر الماء أو بحر الرمل. لقد كانت الصحراء - كما يعبر لويس ممفورد - هي السور الطبيعي لمصر. ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تمامًا. فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجى دائــًا والصراع الداخلي كذلك، فكان السور ضرورة استراتيجية منذ البداية وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة، وذلك حين لم تعرف المدن الإقليمية المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانئ الثغور.

هـذا عن نمو المـدينة في حضن التـلال. وفي المراحـل اللاحقة فقط بدأ يضاف إلى التوسع نحو الشمال، توسع

فى اتجاه جديد نحو الغرب. فمع نمو الأرض الطميية ونضجها الفيزيوغرافى على حساب النهر المتراجع غربًا، بدأ الاستثمار الزراعى ثم البنائى العمرانى يزحف غربًا. لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتورات العالية إلى الكنتورات المنخفضة بالتدريج. وبعد أن كانت تتشبث بضلوع التل ورأسه وتخشى الاقتراب من النهر حيث خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه -riv خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه -riv مدينة نهرية شاطئية مستوية. لقد تحررت المدينة من عقال الجبل.وإسار السور معًا وفي نفس الوقت.

وفى المحصلة، فلقد أخذت رقعة العمران والمنطقة المبنية تنمو فى اتجاهين لا فى اتجاه واحد، شمالاً وغربًا، أو قل على محور شمالى غربى عمومًا. وتلك هى الحركة التاريخية الأساسية والمفتاح فى نمو القاهرة، وهى حركة مطردة وإيقاع ثابت، مهما توقفت المدينة أو انتسكت فى مراحل الجمود أو الانكماش.

وحتى أيام الحملة الفرنسية ومحمد على كان خط

الحسينية - باب الشعرية - بولاق يمثل أقصى حدود المتداد المدينة شمالاً، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن كل ما إلى الجنوب كان عمرانًا كاملاً وسكنى متصلة، بل كانت هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقة المبنية، ودون أن يعنى كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف إلى الشمال ولقد كان محمد على هو الذى اخترق ذلك الحد وتعداه شمالاً، نحو شبرا، كما كان عباس هو الذى بدأ العباسية عبر الحسينية. ومع ذلك فقد كان محمد على نفسه هو الذى بدأ الاتجاه إلى جاردن سيتى لتكون سكنًا راقيًا لعائلاته، بينها أن حى الاسماعيلية لم يبدأ إلا أيام لهماعيل والتوفيقية أيام توفيق.

وبالمثل فإن النمو الأساسى فى نطاق مثل الفجالة - السكاكينى، أى جنوب خط المترو ومحطة مصر، لم يتم حقيقة الا بعد ١٩٠٠. وأحدث من ذلك كله بالطبع نمو الشمال الشرقى ابتداء من الدمرداش ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ومنشية البكرى حيث يتفرع إلى شعبتين: إلى الزيتون فالحلمية

فالمطرية فعين شمس شمالاً، والى مصر الجديدة جنوباً. وهذا يصدق أيضاً على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج إلى الساحل وشبرا (بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد).

ونفس الشيء يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجيزة مدينة متواضعة إلى بداية القرن الحالى، وظلت تنمو شمالاً ببطء كشريط يزداد سمكًا وعمقًا، إلى أن دخلت في موجتها المدية مع وبعد الحرب الأخيرة حتى وصلت عبر الدقى والعجوزة إلى امبابة في عروض تناظر عروض حى الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد. وبعد أن كان عمران الجيزة يقع دائبًا «جنوب» القاهرة، أصبح يقع «غربها» نصًا. وهنا نلاحظ أن نمو الضفة الغربية باستثناء بندر الجيزة هو نمو طارئ حديث جدًّا إذا قورن بالضفة الشرقية عمومًا.

وهنا لا تتأكد لنا حقيقة واحدة وهى أن النمو كله -على الضفتين - مندفع نحو الشمال، وإنما تتأكد كذلك حقيقة أخرى لا تقل مغزى وخطرًا وهى أن النمو متوقف تمامًا إلى درجة الشلل في الجنوب، وفي الضفتين أيضًا على السواء. فلم تتعد مصر القديمة حدودها المزمنة قرب أثر النبي، وكذلك الجيزة القديمة (البندر). وإذا كانت المعادى وحلوان على الضفة الشرقية تمثلان غوًّا حديثًا وعصريًّا، حلوان منذ اسماعيل كمدينة استشفاء، والمعادى منذ توسعت وتوطدت جالية الاستعمار البريطاني، فإنها تمثل ضواحى منفصلة عن جسم المدينة ولا تنقض القاعدة بقدر ما تؤكدها. وقبل الشيء نفسه عن نمو منطقة الهرم حديثًا، فهي أقرب إلى النمو الشيريطي الخيطى على أطراف المدن development.

والخلاصة أن الحدود الجنوبية لجسم القاهرة عثل الثوابت الاستاتيكية Constants في حركة المدينة، حيث عثل الحدود الشمالية العوامل المتغيرة النامية والدينامية Variables وأن في مجرد الفرق في التسمية بين مصر القديمة في أقصى الجنوب ومصر الجديدة في أقصى الشمال لتلخيصا بليغا لكل تاريخ وحركة النمو داخل هذا

المجمع المدنى الحافل.

على أنه ليس يكفى أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلى وحده من اختناقه في الجنوب وانفساحه السهلى في الشمال. فلاشك أيضًا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وانتاج، وانفتاحها بما يقع خلفها من موانى واتصالات خارجية تجارية، تمثل لا شك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعتها بالخامات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصرف الخارجي. بل قد يكن أن يقال إن نمو القاهرة شمالا في لسانيه الأساسيين شمالا وشمالا شرقا هو انعكاس بعيد في نهاية المطاف لجاذبية الاسكندرية والسويس على الترتيب..

واذا كان التناقض في قوة النمو واضحًا صارخ الوضوح ما بين الشمال والجنوب، فهو على الأقل حقيقة مؤكدة ما بين الشرق والغرب أيضًا. ففي الشرق حائط المقطم يقف حائلا منذ العصور الوسطى يخنق كل إمكانيات النمو، حتى في الوقت الحالى لا يمثل مشروع

مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية. أما غربًا فإن المدينة استعمرت النهر نفسه - أعنى جزيرتى الجزيرة والروضة - ثم عبرته لتجعل من الضفة الغربية شقيقة صغرى للشرقية تناظرها طولا وأن دقت عرضًا، ولتجعل من المجمع المدنى كله مدينة ضفتين تمتطى النهر كما يقال مداهده مدينة مدينة ضفتين محمل النهر كما يقال مداهده مدينة صفتين محمل النهر كما يقال مداهده مدينة صفتين المهر كما يقال مداهده مدينة صفتين المهر كما النهر كما النهر كما المدنى كله مدينة صفتين النهر كما النهر كما المدنى كله مدينة صفتين المجمع المدنى كله مدينة صفتين المهر كما النهر كما المدنى كله مدينة صفتين المجمع المدنى كله مدينة صفتين المحمد المدنى كله المدنى كله مدينة صفتين المحمد المدنى المحمد المدنى كله المدنى كله

ومن المحتمل في المستقبل أن يسرجح معدل النمو في الضفة الغربية معدله في الضفة الشرقية نسبيًا، لأن الأولى هي جبهة ريادة العاصمة الآن وطاقة أو كوة رئيسية لتمددها. ويكن أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى فنقول إن دفعة النمو إذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالي فقد تتحول في بضعة عقود الى المحور الغربي. وقد وصل عمق الضفة الغربية اليوم إلى بولاق الدكرور في الجنوب وميت عقبة في الشمال، وربا واصل غوم إلى الخط المسرياني للسكة الحديدية بين الوجهين.

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة اذ تزحف شمالا في موجتها المدية العاتية، وبسرعة العاصفة في العقود الأخيرة خاصة، مع ثباتها المطلق أو شبه المطلق في الجنوب، فهي إنما تنتقل بالتدريج مبتعدة عن الصعيد وملتحمة بالدلتا. أن الأصل في القاهرة – عاصمة – أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية وكضابط إيقاع بين أجزاء الوطن وأقاليمه، تنتمي إلى الدلتا بقدر ما تنتمي إلى المحقق الآن أنها أدخل في فلك الدلتا وأشد التصاقا بها وزحفًا إليها.

ذلك وكأنما هي تزحف تدريجيًا مع رأس الدلتا (التي كانت إزاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية) والتي تزحف شمالا باستمرار. أو كأنما هي تزحف مع مصر الحديثة عمومًا، حيث يقتصر المعمور في أقصى جنوب الصعيد (منذ خزان أسوان ولكن بالأخص مع السد العالى)، ويتمدد في أقصى شمال الدلتا (مع استصلاح البراري الذي سيصل بالأرض الزراعية قريبًا الى سيف البحر). أو - أخيرًا - كأنما هي ترمز إلى تناقص وزن الصعيد النسبي في اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس إلى الدلتا (الصعيد الآن لا يقدم إلا ٨٣٪ من

وهذا ما يقودنا إلى وجه شبه آخر في الشكل بين غو القاهرة الكبرى وامتداد الأرض السوداء في مصر. إذا أنت نظرت إلى خريطة القاهرة فلن تخطئ بالتأكيد شكلها الكأسى الخاص، فهي أولا وأساسا مدينة طولية أكثر منها عرضية، فبينها يصل امتدادها على المحور الطولى إلى نحو ١٣ كم، لا تزيد في أقصى عرض لها عن ٧ كم، وتقبل عن ذلك كثيرًا في المتوسط وقبد تصل الى حد الاختناق في أقصى الجنوب. وبينها يأخذ النيـل محورًا شماليًا جنوبيًا بعـامة، ينفـرج الخط الواصـل بين مصـر القديمة ومصر الجديدة إلى أقصى حد ممكن.. ويالاحظ أن جبهة الزحف شمالا لا تمثل خطًا واحدًا منتظها، بل يتقعر في وسطه لأنه يتقنــل أساسًــا في محورين همــا كتلة مصر الجديدة - عين شمس في الشمال الشرقي وكتلة شبرا -روض الفرج في الشمال، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحدداء النيل، وبين هذين اللسانين برزخ أو خليج عريض من الأرض الزراعية.

الشكل إذن مروحي بـوضوح، تكمن خلفـه ضوابط الموضع وتضاريسه الأولية، سواء أخذنا الضفة الشرقية على حدة أو إذا أضفنا إليها الغربية. وهـذه اذن مروحـة منشورة مفتوحة، يدها في الجنوب. وهذا يذكرنا على الفور - وان يكن على تصغير شديد - بشكل الدلتا نفسها. وحتى لسانا النمو الشماليان السابق ذكرها يكملان التشبيه بفرعى دمياط ورشيد! بل اننا إذا أضفنا الذيل المبتور من النمو المتقطع على استحياء في الجنوب عبر المعادي وحلوان كيد قصيرة لمروحة العاصمة، لاقترب الشكل جميعًا من هيئة مصر عمومًا حيث يرسم الصعيد يدًا طويلة جدًّا، ولكنها ليست قوية جدًّا، لمروحة الدلتا. إن عاصمتنا لا تلخص كيان مصر البشرى فحسب، وإنما تختزل شكلها الجغرافي أيضًا في بقعة أو في كبسولة.

ماذا إذن عن توسع وغو القاهرة الرأسي، بعد ذلك النمو الأفقى الطاغى؟ معه جنبًا إلى جنب تقدم بإيقاع متناغم. فتاريخ المدينة لم يكن تمديدًا للأطراف فحسب

بل وتكثيفا للداخل أيضًا. ولقد أتى على القاهرة حين من الدهر كانت تتخلل منطقتها المبنية فجوات وفراغات ضخمة من الخراب أو الخواء، وحتى أوائل القرن الماضي كان جسم المدينة مبعثرًا مخلخلا غير ملمـوم، ولكنه أخـذ يلتئم بـالتدريـج. وبينها كـانت الأطراف تنمـو كفيللات مبعثرة وسط الحقول، كانت الفيللات في الوسط تتحول الى عمارات، والعمارات تتناطح وتتلاحم وتتسابق إلى أعلى كالأشجار في الغابة تتصارع من أجل الوصول إلى الشمس. وبين هذا وذاك جميعا توشك المدينة أن تغص وتختنق ولا تكاد تجدرنة خضراء أو مساحة مكشوفة. والناظر إلى خريطة المنطقة المبنيـة اليوم في القـاهرة قــد يحسب خطأ أن بها فراغات غير مستغلة كتلك التلول المتقدمة في عين الصيرة وزينهم وقطع المرأة في شرق المدينة. ولكن الحقيقة إن هذه حدود المنطقة المبنية هناك، وانما تفصل بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات، أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لا انقطاع لها.

وفي ختام هذا الحديث عن النمو، لابد لنا من وقفة

تجيب على سؤال ملح: ما الذي أطلق المدينة من عقالها، خاصة منذ القرن الماضي، كمارد خبرج من القمقم؟ لقد ظلت المدينة الموسيطة تحتمل رقعة متمواضعة محمدودة في شرق المنطقة، ولم تخرج من قوقعتها التاريخية والجغـرافية إلا في أواخر العصور الوسطى – وعلى استحياء ذلك. ثم مع القرن الماضي فقط تمددت تمددًا جديدًا تمامًا صوب النهر، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد في العقود الأولى من هذا القرن، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية وحدها انفجرت في موجة مدية حقيقية هي منذ الثورة أسرع وأعتى منها في أي وقت مضي. ونحن نستطيع أن نصنف هذه الفترات في تاريخ حياة المدينة إلى مراحل ثلاث أساسية: الأولى هي المرحلة النووية، والثانية هي التكوينية، والاخيرة هي الانفجارية.

ولعل رقعة القاهرة قد نمت في القرن السابق للحرب الثانية أي في المرحلة التكوينية أكثر مما نمت طوال الألف عام منذ نشأتها العربية أي في المرحلة النووية، بينها قد يزيد نموها بسهولة في مرحلتها الانفجارية في ربع القرن

الأخير عنه طوال القرن الاسبق عليه. لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الأبوية، وانساحت من المقطم إلى الهرم، ومن الصحراء إلى الصحراء، ومن حلوان إلى شبرا الخيمة، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسي هي سور المدينة أصبحت تتخلل المرزوع وتخلخله كمدينة بلا حدود. ومن السهل أن نتبع انعكاس هذا كله رقميًا في تعداد السكان، ولكن يكفي هنا أن ننذكر أن المدينة التي بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون، قد تعدت الآن الخمسة ملاين.

مرة أخرى: لماذا، وما هو الزناد الذى أطلق هذا النمو المريد؟ ثمة على الترتيب عاملان ضابطان أو محركان، لا يكفى أى منهما وحده تفسيرًا إلا لمرحلة محددة. الأول هو الموضع والثاني هو المواصلات. فمن السهل أن نرى أن النمو في المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدريج. ولكن لا شيء يفسر المرحلة التكوينية، فضلا بالتأكيد عن الانفجارية من بعدها، إلا ثورة المواصلات.

الحديثة. فحتى محمد على، كانت الدواب هى وسيلة النقل الأساسية داخل المدينة، والمركب الشراعى وسيلته خارجها. كان نفس الحركة البشرية قصيرًا للغاية، ومعه كان توسع المدينة قاصرًا بالضرورة. ثم بدأت سلسلة تماريخية: من المدواب إلى عربات الخيل الى خطوط «سوارس» المنتظمة إلى الترام ثم أخيرًا السيارة الخاصة والعامة. وحدود القاهرة العمرانية في أى لحظة خلال هذه الرحلة هى وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك.

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقه: هذا النمو، هل هو صحى سليم تمامًا؟ أيسير في أنسب خطوطه واتجاهاته الأكثر ترشيدا؟ لن نقف هنا عند قضية تضخم العاصمة في جسم البلد حيث بلغت الخمسة ملايين من ثلاثين مليونًا أو يريد، ولن نقول «الورم الأكبر The ثلاثين مليونًا أو يريد، ولن نقول «الورم الأكبر great Wen للاثن مليونًا قال كوبت Cobbet عن لندن في عصر الصناعة، فمن المحتمل جدًّا أن القاهرة تعاني من إفراط السكان المتر وبوليتانية مثلها تعاني مصر نفسها من إفراط السكان بعامة. ولكن لعل أخطر من هذا النمو - الشيطاني نوعًا

Mushroom - ملمح ملح مزمن قد يحمل شبهة النمو السرطاني ذاته.

والإشارة هنا هي يقينا إلى توسع الرقعة المبنية على الأرض الزراعية الثمينة في عالم جغرافي متناه يعاني من بجاعة أرضية. فكثير من أبناء القاهرة يذكرون ولاشك في مدى عمرهم آلاف الأفدنة الزراعية في شبرا والجيزة (بمعناهما الواسع) وكيف كانت طرق المواصلات والتـرام تمضى لأميال وسط مزارع ومشاتل الفواكه والنزهور والخضروات الكثيفة، ظلت تتضاءل وتنكمش بالتـدريج وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المباني. ولكن هذا كله تحول اليوم إلى مبان كثيفة ونفيت الزراعة الى آفاق بالغة التطوح والبعد. وإذا كان هذا لا يصدق عـلى لسان النمو في اتجاه مصر الجديدة فهو للأسف صادق على شعبته الثانية في اتجاه عين شمس حيث لا يحاذي امتداد العمران حافة المزروع وإنما يترامي عليه، لا يجاوره بل يجاوزه.

إن المدينة تأكل سكانها كما يقال، ولكنها هنا تأكلل

أرضها أيضًا، فهى من قسوارض الأرض النزراعية، وبشراهة ذلك. وقد آن أن يكون الرمل للعمران والطين للزراعة. وفي شمال شرق القاهرة تجاه العباسية ومدينة نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب، بينها قد يكمن الحل بعد ذلك في الضواحي المنفصلة فينزيقيا عن جسم المدينة بحيث تقوم لا في عرض الوادى والما على حافتي الصحراوين، خاصة على طول مخارج المدينة الأساسية في طريقي الاسكندرية والسويس الصحراويين.

شبكة الخطة وشبكة المواصلات

حتى النظرة العابرة إلى خريطة القاهرة، بشبكة شوارعها ومربعاتها السكنية، لا يمكن أن تخطئ ثلاثة ملامح بارزة في خطة العاصمة. أولها وجود عنصرين أساسيين يتقاسمان رقعة المدينة: تخطيط - أو بالأصح لا تخطيط - عشوائى تلقائى يمثل النمط العتيق في المدن بل والقرى المصرية عامة، ويمثل في العاصمة مناطق النواة

القدية منها، وتخطيط هندسى مصمم منتظم في أشكال مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو دائرية، يمثل بدوره العنصر العصرى «الأوربي» الجديد في تركيب المدن المصرية الذي أدخل منذ القرن الماضى فقط، وهذه الثنائية الأساسية في الخطة ترمز بسهولة وبلاغة إلى الثنائية الحضارية في مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم والجديد والأصيل والدخيل.

الملمح الثانى هو سيادة مساحة التخطيط الهندسى الحديث سيادة حاسمة بالنسبة الى مساحة اللاتخطيط العشوائى القديم. وقد يبدو هذا غريبًا نظرًا لحداثة عهد التخطيط الهندسى المنتظم، ولكنه فى الحقيقة يلخص - فى نظرة - قصة نمو المدينة الحديث حيث وجدنا أن الرقعة الكبرى من كتلة المدينة هى أساسًا بنت القرن الاخير والمرحلتين التكوينية والانفجارية فى تاريخها. أضف إلى هذا أن كثيرًا من عمليات التقويم والتهذيب الهندسى فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم، فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم، عا يخفف من انتشارها وإن لم يخف آثارها ثالثًا، وأخيرًا،

فمن الواضح أن مناطق الخطة العشوائية القديمة تنحصر أساسًا في أطراف المدينة القديمة خاصة في الشرق والجنوب، وإن وجدت منها جيوب شاذة في الشمال أو الوسط. وعلى أية حال، فإن هذا الوضع أوضح جدًّا في الضفة الغربية منه في الشرقية، حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة ويسود التخطيط الهندسي كل الشمال. ويعني هذا في نفس الوقت أن القديم يرتبط بالكنتورات الأعلى من المدينة، بعكس مناطق التخطيط الهندسي الحديث.

وهذا الملمح الأخير كله يتفق إلى حد كبير مع قانون الخطة في المدينة المصرية عامة، حيث نجد دائبًا كتلة قديمة عشوائية في القبطاع الجنوبي تقبوم على ربوة صناعية مرتفعة محدبة كطبق مقلوب، بينها تترامي تحت أقدامها في القطاع الشمالي وعلى مستوى الأرض الطبيعي رقعة من التخطيط العصرى المنتظم. فالقبطاع الجنوبي هو نواة المدينة قبل العصر الحديث، والشمالي هو النمو الحديث في القرن الأخير. وتتناسب مساحة كل من القطاعين إلى

الآخر بحسب خطة المدينة من النمو والتضخم في الفترة الحديثة. أى أنه كلما زاد نمو المدينة ودرجة انفجار هذا النمو، قلت نسبة مساحة النواة العشوائية القديمة إلى مساحة التخطيط الهندسي الحديث - والعكس.

في ضوء هذه المؤشرات الأساسية، يمكننا الآن أن نتتبع خطط القاهرة بشيء من التفصيل.. ولنبدأ باللاتخطيط القديم. هذا نوع من الخطة البدائية الفطريـة التي تظهر تلقائية غير عامدة، خطة بـلا تخطيط كـما قد نقول، تبرز من مجرد تجمع المباني معًا. وهي في جـوهرهـا خطة القرية المصريـة والتي لا تخلو تمامًـا من منطق، بــل ومنطق هندسي، ولكنه باهت بالغ التقـريب. فثمة حـول الحلة طريق دائري ولكنه غير منتظم (داير الناحية) تخرج منه إلى قلب المنطقة المبنية عشرات من الطرق الضيقة والحارات التي تنتهي إلى نهايـات مسدودة في قلب البلد – أي أزقـة مغلقة – والتي تتلوى وتتفـرع وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة أو بأخرى. والعشوائية باديـة لاشك فيها، ولكن خلفها تكمن جرثومة الخطة المتشععة أو الدائرية المتشععة بصورة أو بأخرى radio-concentric.

وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ما تنتشر في القطاع الشرقي والجنوبي من القاهرة شرق النيل ابتداء من باب الشعرية والأزبكية والظاهر والحسينية في الشمال، حتى السيدة زينب وطولـون والسيدة نفيسـة جنوبًـا. ثم تعود فتظهر في مصر القديمة في أقصى الجنوب. وهذه بالفعل هي القاهرة القديمة والأحياء التاريخية والتقليدية التي تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحوارى المسدودة والتوائها وتعرجها الشديد، الذي يضاعف منه تضرس الطرق بسبب الموضع التلى وتحولها أحيانا إلى طرق سليمة، والذي يضاعف دوره من كثافة المساكن والسكان ودرجة التزاحم. والكل ينتهي إلى تيه لابـرنتي من شبكة طرق لا تصلح للمواصلات الحديثة بحال. من هنا كان التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح كثير من الحارات والشوارع، أي بعملية فـرض أو مزاوجـــة مفروضــة بين اللاتخطيط والتخطيط. والواقع أن هذه العملية واسعة الانتشار في كل هذا النطاق.

ومن طريف المفارقـات هنا أن نـلاحظ أنه بينــا تبدو

أحياء شرق القاهرة ضائعة في خطتها المضطربة العشوائية نجد إلى الشرق والجنوب منها توا أو وشيكا مساحات من التخطيط الهندسي النظيم الدقيق تغطي رقعة كبيرة من خريطة المدينة. على أن هذه لا ينبغي أن تخدعنا، فإنما هي مدينة الأموات - المقابر والجبانات المترامية في حي الخليفة وفي قايتباي والغفير - التي تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل كما لاحظ ديزموند ستيوارت بدهشة أساء وأرقاما!

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك، مع نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التي يفرضها تنظيم العاصمة، في حي بولاق، حيث يبدو كجزيرة شاذة وسط التخطيط الهندسي، ثم لا نلقاها بعد ذلك إلا عبر النهر في أقصى الجنوب من الضفة الغربية، أي في نواة الجيزة القدية (البندر) حيث تتنافر بوضوح صارخ مع بقية التخطيط الهندسي المنتظم إلى الشمال.

وإذ ننتقل إلى التخطيط الهندسي الحديث، الذي يغطى بقية رقعة العاصمة فيها عدا بعض جزر وأسافين

قزمية متفرقة من التخطيط العشوائي على أطراف المدينة هي القرى والعزب السابقة التي أغرقها وابتلعها المد الحديث، كمنية السيرج وبعض العزب المبعشرة في شمال شبرا، وقرى كإمبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور في الضفة الغربية، إذ ننتقل إليه نجد صورة مختلفة تمامًا، بسيطة جدًا ولكنها بالغة التعقيد جدًا. فالمدينة هنا عبارة عن موزايكو لا نهائي من وحدات مساحية ذات أشكال هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل وقليلا ما تجنح إلى الـدائـرة أو المضلع. ولكنهـا دائــًا خـطوط هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية مماثلة في هندسيتها. أما التعقيد فمصدره أن هذه الأشكال المنتظمة القائمة الزوايا لا تتبع في توجيهها بالنسبة للجهات الأربع الأصلية محورًا واحدًا باستمرار، كما هو الحال في المدينة الأمريكية مشلًا، وإنما تتبع – حرفيًا – عشرات وعشــرات من المحاور التي تختلف من رقعـــة إلى أخــرى، Jig-saw. ومن هنا قلنا بسيطة ومعقدة في آن واحد. ولا يستثني من ذلك إلا المعادي وحلوان حيث محــور

توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة أكثر في كــل المنطقة المبنية.

وإذا كانت المحاور القاعدية التي تحكم تلك الرقع الشطر نجية اللامتناهية متنافرة كل التنافر، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطًا، بل هي من وحي وتوجيه ضابطين أساسيين: النهر، ذلك الشريان المحوري الذي تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة، والشوارع الرئيسية أي الطرق الشريانية التي تفتح الأحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها،

فأما النهر فموجه حاسم وحتمى، فسواء على الضفة الشرقية أو الغربية، ولكن على الأخيرة بالأخص، يجرى عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسى (ممتطيًا ظهر جسر الطراد عادة) يمتد بطول النهر ويحاذيه، كشارعى الجيئة والقصر العيني على الترتيب. ولما كان للنهر تعرجاته وانحناءاته، فإن ذلك الشارع يتبعها بأمانة. وكذلك تفعل الشوراع الثانوية الموازية إلى المداخل. ولما كانت الشوراع العرضية عمودية على المطولية، فإن شبكة

الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير في محاور اتجاهاتها الأصلية من قطاع إلى آخر بحسب تعرجات النهـر الحاكمة.

خذ كل الضفة الغربية من الدقى حتى إمبابة، ولن تجد لهذه القاعدة تبديلًا. وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمق سكة حديد حلوان: الشوارع الطولية تعاذى النهر، والعرضية تتعامد عليه وعليها. وبالمثل فى جزيرة الروضة، حيث توازى الشوارع الطولية شاطئى الجزيرة الاثنين، حتى إذا ضاقت الجزيرة فى الجنوب تبعت الخطة محور أحد الشاطئين دون الآخر، فتتكون شرائع مثلثة شاذة. ونفس الشىء واضح فى فم الخليب وأبوالسعود شمال مصر القديمة، مثلها هو فى الشمال فى روض الفرج والساحل عمومًا.

أما عن أثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح في الداخل، بعيدًا عن أثر النهر. فهذه تصبح العمود الفقرى الذي تركب عليه - بزوايا قوائم - تفاصيل الخطة الهندسية، فإذا انحرف العمود انحرفت معه

واتجهت بحسب توجيهه. أما مسارات تلك الشرايين فتحددها المواقع النسبية بين النقط الاستراتيجية فى المدينة، أو ربا ضوابط المواضع القديمة كالترع الحفرية التي ردمت وتحولت إلى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصرى (شارع بورسعيد الآن) والترعة البولاقية (شارع الترعة البولاقية).

والأمثلة عديدة. ففى شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية، وكل تفاصيل الخطة المربعة فى الحى برمته تعكس اتجاه كل منها. ولكن المثل الكلاسيكى هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والمظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحى، ففى كل هذا النطاق المترامى ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة، ولكن على عديد من المحاور المتنافرة جدًا. غير أن هذه جميعًا إنما تتحدد بدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق المترو، الذى ينحنى ويتعرج بحسب مساره ووجهته. والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية محورًا يوشك أن

يكون شرقيًا غربيًا، بينها أن منطقة كالمطرية وعين شمس ينقلب فيها المحور إلى شمالى جنوبى، في حين يتعدل فيها بينهها بالتدريج كالبندول.

هذا، وتمثل الزمالك - النصف الشمالى من الجزيرة - حالة طريفة، ففيها يجتمع أثر النهر والشارع ليدمغا الخطة بطابع فذ. فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسى الحاكم الذى يقطع الجزيرة بين كوبرى ٢٦ يوليو (أبو العلا) وكوبرى الزمالك، وبذلك تتقاطع الشوارع الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينها أشكالا هندسية نبادرة كالمعين وشبه المنحرف. إلخ، بينها إلى الجنبوب من شارع الكوبريين تسود شبكة مربعات منتظمة تتوازى معه وتتعامد عليه نصًا.

وينبغى أخيرًا أن نذكر نمطًا خاصا ومحليًا من التخطيط الهندسى، لا يتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر ما يتبع الدوائر المتقاطعة والأقواس المتداخلة، ونعنى بهذا خطة الحدائق الإنجليزية English Gardens، التي تنحدر أصلًا عن فن تخطيط البساتين Landscape gardening ففى

جاردن سيتى وحدائق القبة نجد خطط الشوارع كأقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز. وبقدر ما تعطى هذه من منظور معمارى فخم ومبان انسيابية في لاندسكيب الحي، تعطى من مشاكل المواصلات. فهاتان المنطقتان متاهتان من أشق قطاعات العاصمة لسكانها ولغير سكانها على ما نعلم.

وإذا نظرنا إلى مناطق التخطيط الهندسى في العاصمة بعامة، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط أو تنشأ في ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطاعى مع النمو الجزئي. ولهذا فهي تترابط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة رديئة مفككة غالبًا، والأغلب أن تترك فيها بينها مساحات وجذاذات شاذة والأغلب أن تترك فيها بينها مساحات وجذاذات شاذة الشكل أو حادة الزوايا.

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر في محاور التوجيه يخفف من تنميط الخيطة ورتابة الأحياء والشوارع، كما يعنى تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطى فرصًا أكثر للتهوية والإشعاع والطل، كما يمنع تحول

المدينة إلى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلاً. ولكن نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوى عن طريق المواصلات ضعيفًا مفككًا. وينم عن هذا ويشى به محاولات موضعية هنا وهناك لفرض مجموعة من الشوارع المتشععة على بعض تلك الخطط الهندسية المربعة، تتحول بها إلى شيء أشبه بالخطط الدائرية المتشععة أو قل المضلعة المتشععة، كما في الاسماعيلية في وسط البلد وكما في وسط الروضة وفي العجوزة ثم السكاكيني بالظاهر، ولكن بالأخص في مصر الجديدة.

غير أن هذا غالباً ترقيع موضعى أوتحايل محلى، ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعى ولصقت أجزاء خطتها إلى بعضها بالتقسيط وبلا إطار عام. فإذا أضفنا إلى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة، مع ضخامة رقعة العاصمة عمومًا، لكان حقًا أن يقال إن القاهرة من المدن التي يصعب التعرف على أجزائها والحركة فيها. ولكن هذا أدخل في باب المواصلات، وهو ما ينقلنا إلى شبكة النقل العاصمية.

رغم بعض الشوارع الرئيسية التي تحاول أن تصحر أخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء اللاتخطيط العشوائي، إلا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية متشععة على مستوى العاصمة ككل. وهناك أكثر من بؤرة تتشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هي التي تتبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها. ولعل أهمها محطة مصرحيث تخرج منها شرايين شارع شبرا شمالاً، وبولاق غربًا، والجلاء جنوبًا بغرب، الجمهورية جنوبًا (إبراهيم سابقًا)، ثم شارع رمسيس بوابة وعنق زجاجة كل ضواحي شمال شرق القاهرة. وتقدم العتبة بؤرة أخرى، فميدانها مصب لحركة شرق المدينة: شارع الجيش إلى العباسية، شارع الموسكى - جوهر إلى الجمالية، شارع الأزهر إلى الغورية والدراسة، شارع القلعة إلى القلعة والخليفة. وميدان باب اللوق والسيدة زينب بؤر أخرى.

على أن هذه الحزم المتشععة لا تؤلف فيها بينها خطة متشععة بمعنى الكلمة، ولمو أن الملاحظ أن شبكة خطوط الترام كانت تقليديًّا وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع ما يرسم خطة متشععة بارزة، لا سيا من مركزين هما ميدانا محطة مصر والسيدة زينب.

وعدا هذا فينبغى أن نلاحظ أثر مواقع الكبارى النهرية على تقنيل شبكة المواصلات. فعلى جانبى النهر في كل من كوبرى التحرير وكوبرى الجلاء يتحدد موقع حزمة كثيفة من محاور الحركة والنقل، بل إن كلا من هذين الميدانين يشكل في الواقع بوابة ضفته الحقيقية على النهر. ومثل هذا يقال عن كوبرى ٢٦ يوليو والزمالك في الشمال، وكوبرى الجيزة والملك الصالح في الجنوب، بدرجات متفاوتة. والحقيقة أن مواقع هذه الكبارى المتناظرة والمترابطة، التي هي أعناق الزجاجة الحاسمة والخانقة بين ضفتي النهر، هي التي تحدد معظم الشرايين العرضية التي تقطع المدينة من طرف إلى طرف. والتي تعانى القاهرة من قلتها بوضوح.

ولأن القاهرة مدينة طولية أكثر منها عرضية، فإن أهم محاور وشرايين الحركة هي الشمالية الجنوبية التي تخترق - بالضرورة قلب المدينة فيختنق بها. وهذا هو المحرك

الأساسى خلف فكرة إنشاء طريق دائرى يلف بأطرف المدينة دون أن يخترق قلبها، كما يتمثل في شارع بورسعيد، أطول شوارع القاهرة الآن، والذي يرتبط أساسًا بشرق المدينة القديم، وكذلك شارع صلاح سالم الذي شق حديثًا.

من كـل هذه الـزوايـا يتضـح لنـا بجـلاء أن مشكلة المواصلات في العاصمة لا انفصال لها عن مورفولوجيتها وهيئتها الجغرافية البحتة. ويقف في مقدمة هـذه الضوابط الجغرافية اثنان. أولاً، انشطار المدينة إلى شقين أو ضفتين، الأمر الذي يجعل على الفور من كباري النهر أخطر نقط استراتيجية حرجة في تدفق الرحلة اليومية إلى العمل. ثانيًا، اتخاذ أطراف المدينة الشمالية شكل لسانين أومثلثين ضخمين في شبرا - روض الفرج وفي مصر الجديدة -عين شمس، يتصلان بجسم المدينة في أضيق رءوسها، أي بأعناق زجاجة مختنقة على التو. وهذا النمط بارز جدًّا في الحالة الأخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد أن يكون منفصلا إلا من عنق دقيق عند كـوبرى القبة. في كل هذه المواقع بنوعيها، كباري النهر وأعناق

الضواحي، تتأزم مشكلة المواصلات إلى حد الاختناق.

على أن الذى يضاعف منها أن كل تلك الأطراف فى الضفة الغربية عمومًا وفى شمال الضفة الشرقية هى باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل. ثم هى تتضاعف مرة أخرى كالربح المركب بطبيعة هذه الأحياء. فإن كانت شعبية لا تملك كثافة السيارات الخاصة، فهناك كثافة السيارات العالية التى تنعكس على وتترجم إلى كثافة السيارات العامة (لسان كتلة شبرا روض الفرج). وإن كانت سكنًا راقيًا أقل كثافة السيارات الخاصة (لسان الشمال الشرقى، فهناك كثافة السيارات الخاصة (لسان الشمال الشرقى، والضفة الغربية).

ولا تقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة مغزى وخطرًا عن شبكة النقل الأخف. ويمكن ابتداء أن نزعم أن محطات السكك الحديدية في المدينة المعاصرة هي بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وإنما انتقلت من السور الهامش إلى الوسط. إنها «مداخل» المدينة ولكن في الداخل. ولعلها أكثر من صدفة أساء «باب» الحديد،

و «باب» اللوق، كأنما تلح لتذكرنا بأنها وظيفة وإن لم تكن موقعًا وريثة «باب» زويلة أو «باب» النصر مثلًا.

ومواقع محطات السكك الحديدية في القاهرة استراتيجية تمامًا، فمحطة مصر؛ (وكوبرى الليمون التابعة) ومحطة باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية، وتخرج منها الخطوط القومية أو خطوط الضواحى في اتجاهات ثلاثة، شمالاً وشمالاً شرقًا وجنوبًا.

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية كالخلية العارمة لشبكات الأوتوبيس، فهى أقطاب مغنطيسية للمواصلات عمومًا ونقط انقطاع وتغيير فى وسيلة المواصلات (من السيارة إلى القطار أو العكس). غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام، بمثل مما أن خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات حادة فى تدفق حركة المرور كها يتبلور خاصة عملى طول. خط مترو شمال شرق القاهرة.

وقد انعكس تأزم مشكلة محطات السكك الحديدية في المدينة في المدينة في أن التكامل والتعايش بين القطار والسيارة

تحول أخيرًا إلى صراع انتصر فيه القطار في محطة مصر حيث نقلت محطة أوتو بيسات الأقاليم بعيدًا الى أطراف المدينة في شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين عوامل الطرد والجذب المركزية. أما في محطة باب اللوق فيبدو أن القطار هو الذي سيخسر الحرب، إذ تقرر مبدئيًا في مشروع خطوط الانفاق المزمع أن تنقل نهاية خط الضواحي جنوبًا إلى كوبرى الملك الصالح.

من كل هذه الخيوط المعقدة إذن تنسبج مشكلة المواصلات اخطبوطها الخانق المرمن في العاصمة التي يئست نهائيًّا من الحلول السطحية - أعنى على سطح الأرض - فلجأت إلى الحلول تحت الأرضية كما تتمثل في فكرة مترو الأنفاق الذي يعكس مشروع خطته المبدئية شكل المدينة الطولى أساسًا. إلا أن جذور المشكلة تكمن في أكثر من قضية، منها الفارق الحضارى: فشوارع في أكثر من قضية، منها الفارق الحضارى: فشوارع المدينة خططت في عصر - ولعصر - ما قبل السيارة وما قبل الصناعة، وهي الآن تعانى بالضرورة من تصلب الشرايين واحتقان الدورة الدموية.

ولقد أثبتت تجربة العواصم الكبرى الماثلة أن خطوط الأنفاق ليست بالضرورة الكلمة الأخيرة في القضية، ولا تلبث مشكلة المواصلات السطحية أن تعود. فلندن وباريس تملكان خطوط انفاقها منذ عقود وعقود، وكذلك نيويورك، ومشكلة المواصلات السطحية لم تــزل مـزمنة. ولعـل بعض الدرس المستفاد هـو أن القـاهـرة الكبرى بحاجة حقيقية - مع أو قبل الأنفاق - إلى عملية «هسمنة Haussmannisation»، كيا تسمى، عيلى غرار ما عرفت باريس في السبعينات الماضية، جريئة واسعة الخيال دون أن تكون راديكالية بتارة بالضرورة، فتفرض على أرضية خطتها الفسيفسائية نظامًا متشععًا، متعدد البؤرات - منعًا لتركيز المشكلة في نقطة واحدة -من البوليفارات المحورية الشريانية ذات التوقيع الاستراتيجي بحيث تتحول هيمدرولوجيمة النقل في قلب المدينة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب.

كذلك لا مفر من إعادة توزيع العمل والسكن فى محيط القاهرة الكبرى. فتركيز العمل فى القلب التجارى المركزى (C.B.D.) كما يسميه الأمريكيون) وغيابه إلى

حد بعيد في الأحياء السكنية في الأطراف عامل جذرى وقاعدى. ولعل من الضرورى أن يتحول قلب المدينة نفسه هو الآخر إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب، بخلق نويات جديدة في الأطراف كمراكز ثانوية subcentralisation، تخفف الضغط عن القلب المسركيني وبالتالى تخفف من كثافة الرحلة إلى العمل.

التركيب الوظيفي

المدينة أى مدينة حزمة من الوظائف في التحليل الأخير، وليست المؤسسات والمبائي إلا أوعية مادية لتلك الوظائف المركزية.. غير أن هذه لا تتعايش معًا إلا بعد صراع على المكان، فالوظائف تتنافس فيها بينها على الموقع والموقع الممتاز أو الأنسب من جهة نظرها، وتحصل عليه الوظيفة الأقدر التي تدفع أكثر. ولما كانت قيم الأرض والعقارات والإيجارات أعلى ما تكون في قلب المدينة الضيق المكتظ، فإن وظائف المدينة تتنضد (أي تتفنط) تلقائيا بالتفاعل والشد والجذب بين مجموعة من

القوى الطاردة المركزية centrifugal تطرد الأضعف إلى أطراف المدينة، وبين مجموعة من القوى الجاذبة المركزية centripetal تجذب الأقوى إلى القلب.

والوظائف مجموعتان عريضتان: وظائف عمل وإنتاج كالتجارة والإدارة والصناعة، ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه. غير أن بين المجموعتين حلقة وصل هامة هي السكن. والسكن وظيفة بالمعنى الصحيح لا شك، بل هو الوظيفة التي تغطى أكبر رقعة من مساحة أى مدينة في العادة. ومصدر أهميتها أنها المفتاح والمدخل الطبيعي لوظائف الخدمات، فهي غالبًا الإطار الذي تدور فيه وتتشكل به قليلًا أو كثيرًا. ومع ذلك فالسكن وظيفة من نوع خاص جدًا، ربما قلنا وظيفة سالبة تمييزًا لها عن الوظائف الموجبة من إنتاج أو خدمات. ولهذا فلعـل من الخير لنا أن نعالجه على حدة بحسبانه طبوغرافية المدينة الاجتماعية، حيث تمثل الوظائف الموجبة طبوغرافيتها الاقتصادية.

* * *

وفى القاهرة، إذا بدأنا بالوظيفة التجاربة التي تلعب

دورًا حيويًا في كيانها كعاصمة قومية فضلًا عن كونها مدينة كبرى، أمكننا أن نميز بين ثلاثة أنـواع من التجارة تمثل في الحقيقة ثبلاث درجات من المركزية. فهناك أولا التجارة المركزية التي تتكدس وتتزاحم بلا هوادة في قلب المدينة. ويلمس القاهري نبض التجارة المركزية في مدينته بالتدريج من مشارف شارع الجلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحيـــة، ومن شارع الجمهوريــة إلى العتبة من نــاحيــة أخــرى، حتى الموسكي وما وراءه تجاه الغورية وشارع الأزهر.. الخ ففي هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجيزئة والجملة السلعية والمالية، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية. هنا كل مراكز المؤسسات والشركات الهامة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية الضخمة التي تتجاذب حولها المحلات الصغيرة. وهذه المنطقة الثجارية تمثل الجهاز العصبى المركزى للوظيفة التجاريسة لسكان العاصمة واقليم العاصمة جميعًا.

من أخص خصائص هذه المنطقة أن تجازة الجملة، الأقـل اتصـالاً بـالجمهـور المبـاشــر والتي تحتـــاج إلى

مساحات أوسع، تنزوى نوعًا إلى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفي هي بـأن تقف خلفها لتغذيها وتخدمها. أما التجزئة فتعيش على الموقع الاستراتيجي البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطئ قدم صغير ولكنه حساس وباهظ الثمن أو الإيجار. فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطة مصر وتجاه التحرير في منطقة معـروف تسودهمـا مخازن الجملة خـاصة من قـطع غيـار السيارات والإطارات والأدوات الكهربية. وفي أركان ميدان الفلكي تتركز تجارة إطارات السيارات. وفي مداخل شارع القلعة كما في الفجالة تتركـز تجارة الـورق والوراقين وأدوات الكتابة. وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديمة والأنتيكات.. الخ. وكل هذه شوارع قل أن يرتبادها الجمهور اليومي العـريض، وهي أكثر هـدوءًا نسبيًّا من شـوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت حسرب وعدلى وقصس النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث لانجد إلا تجارة التجزئة الكثيفة المضطرمة بالحياة والحركة. وبينها يظهر التخصص في خط

واحد بحسب الشوارع أو المناطق في حالة تجارة الجملة، يغلب على تجارة التجزئة الطابع المختلط عمومًا، والذي يصل إلى مداه في المحلات الكبرى المنوعة stores مثل شيكوريل وهانو وجاتينيو.. الخ، وتلتصق وثيقًا بعين المنطقة نصًا.

من أهم الخصائص بعد هذا، الفصل الجغرافي بين محلات التجارة العصرية والقديمة التي تختلف أيضا في روادها، فالأولى أكثر ارتباطا بجمهور العاصمة نفسها أولا وبطبقات الأكثر غنى ثانيًا، بينها يكثر في زبائن الأخيرة أبناء إقليم المدينة من الـريف المجاور أو البعيــد إلى جانب الطبقات القاهرية الشعبية. فالقطاع الغربي من منطقتنا تستأثر به التجارة العصرية، بينها تتراجع القديمة إلى القطاع الشرقى ابتداء من العتبة تقريبًا. فهناك تسود المحلات الشعبية والتقليدية ويتحول السوق إلى «سويقات»، وقد يخرج من المحل إلى الرصيف ومن الرصيف إلى المتجول. كذلك يكثر التخصص بالشوارع ويزداد دور الجملة، كما نرى في محلات المصنوعات الجلدية والأحذية والصيني على نواصي العتبة، وكتجارة الـذهب

والصياغة في الموسكى والصاغة، والأقمشة الخشنة وغزل الأنوال الريفية في شارع الأزهر، والعطارة في الغورية.. اللخ

تلك هي تجارة القاهرة المركزية، التي يتعدى إشعاعها حدود العاصمة، ولكنها مع ذلك لا تحتكر كل نشاظها. فهناك التجارة الثانوية أو المراكز الثانوية أو تجارة الأحياء التي تظهر في مفارق الطرق الاستراتيجية في أغلب الأحياء كنسخ مصغرة محلية - كأنها الأقمار في فلك شمس - من منطقة التجارة المركزية، التي تخرج منها كالأشعة في الواقع ألسنة ممتدة على طول الشوارع المرئيسية في المدينة تحتل المحلات التجارية جوانبها وواجهاتها، حتى إذا تجمعت في مفارق الطرق بعيدًا عن قلب المدينة برزت من تلاحمها وتكاثفها تلك المراكز قلب المدينة برزت من تلاحمها وتكاثفها تلك المراكز الثانوية التي تخدم الأحياء.

ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة، وهي آلاف المحلات الصغيرة المبعثرة في كل شوارع أو زوايا ونواصى الجيزة والأحياء السكنية، والتي يتحدد توزيعها

عادة بحسب كثافة السكان، مثلها يتحدد مستواها بحسب الحالة الطبقية. وعادة ما تمثل هذه مشكلة في مناطق الهوامش والأطراف من المدينة حديثة النمو كالعجوزة الآن، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد أو لا يظهر منها أولا إلا محلات الضروريات كالبقالة والتموين، وتظل المنطقة خامًا تعانى من نقص الخدمة التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر الخدمات التجارية الأكثر رقيًا وترفيهًا.

* * *

من الوظيفة التجارية ننتقبل منطقيًا إلى الإدارية، كعاصمة سياسية، لها شهرة تقليدية بمركزية بيروقسراطية ثقيلة، تلعب الإدارة دورًا هامًا في حياة القاهسرة. ويكفى أن أكثر من ثلث هيئة موظفى الدولة يتسركز فيها. والوظيفة الإدارية تتداعى مؤسساتها بالطبع، وتميل إلى التجمع الجغرافي، كها أنها تحتاج إلى موقع مركزى دون أن يكون بالضرورة في صميم القلب المزدحم الصاخب.

من هنا، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركـزية نـاحية

الجنوب والجنوب الغربي، تمتد رقعة دولة الإدارة وتتابع أجهزتها كأنها قشلاقات جيش الموظفين. فابتداء من ميدان التحرير، الذي يقف مجمعه الشاهق ليعلن كنصب تذكاري عن حدود تلك الدولة، وفيها بين شارع القصر العيني وخط حديد حلوان، يمتد لنحو الميل حي الوزارات والبرلمان بلا انقطاع، ككتلة بالجملة أو كحجر واحد، بل وتطفو خارجها طفوح النمو والربح المسركب، حتى تصل عبر ميدان الخطوعلي إلى ميدان الجمهورية حيث كانت قاعدة الحكم طويلا.

ويلاحظ أنه يرتبط بهذه الكتلة ارتباطا صميماً ومباشرا، وظيفيًا وجغرافيًا، شريحة بميزة بكاملها على الجانب الآخر من شارع القصر العيني من السفارات والقنصليات، تتمثل في قصر الدوبارة وجاردن سيتي التي تتصل بها مباني الخارجية والجامعة العربية المترابطة أيضًا. هنا دولة السلك السياسي الأجنبي الذي يحتاج إلى أن يتعامل مباشرة وفورًا مع دولة الموظفين المجاورة وقديمًا، وفي العصر الاستعماري، فلعل الكلمة الدارجة «ما بين لا ظوغلي وقصر الدوبارة» كانت تعبر عن علاقة أكثر لا ظوغلي وقصر الدوبارة» كانت تعبر عن علاقة أكثر

من عابرة. على أن هذه الشريحة إنما ترتبط بالوظيف الإدارية السياسية ارتباطًا جزئيًا، ولكنها أساسًا منطقة سكنية وليست من القلب الإداري.

* * *

العاصمة بعد هذا هي عاصمة الصناعة المصرية أيضًا، ففيها أكبر حشد للصناعة في البلد. وإذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبيًّا في وظائف القاهرة، فهي منذ القدم مركز تليد للصناعة القدية والمحلية التي تراجعت الآن كثيرًا جدًّا في أهبيتها لتترك الصدارة المطلقة للأولى. وهذه التفرقة هي نفسها مفتاحنا للتمييز وظيفيًّا وجغرافيًّا بين الصناعة الخفيفة والثقيلة، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والآلية، فالصناعة الثقيلة ليس لها مكان إلا على أطراف المدينة، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم في داخلها ولكن بعيدًا عن قلبها التجارى.

على أننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة استعمالاً نسبيًا خاصا فيه قدر من تجاوز. فلعل من الخدير ومن المقبول لأغراضنا وفي إطار المدينة المحلى الضيق ان نطلق الأولى

على الصناعات الأكثر أهمية وحجاً أو وزنًا في اقتصاد أو لاندسيب المدينة، والثانية على الأقل خطرًا ومقيناسًا أو ثقلًا. وهذا مع العلم بأنه لا صناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح في القاهرة إلا صناعة الحديد والصلب في حلوان.

فمن الخفيفة نجد خلية قديمة من الورش والمصانع الصغيرة والمعامل التقليدية في بولاق والسبتية، ترتبط غالبًا بالحدادة والسمكرة وتصليح وتجميع الآلات والمراكب ووابورات السكة الحديدية، وتعتمد أحيانًا على الخردة التي لها سوق تقليدية فيها (وكالة البلح)، كما تعمل في الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتداد أو بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة في القرن الماضي أيام محمد على حين استمدت «المبيضة» اسمها من صناعة تبييض الأقمشة.

وعملى الجانب الآخر الشرقى من المدينة خلف المدوسكى والغورية وباب الخلق حتى السيدة زينب، في الجمالية والدرب الأحمر، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة المتقليدية والحديثة التي تتراوح بين معامل الغرل المتوسطة

وصناعات الأغديد وتعليب الفواكه وفابريقات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية. ومن هذه الوحدات ما يقوم في بنايات أنشئت خصيصًا للصناعة، أو في شقق أو بدرومات المساكن العادية، وبعضها لا يخضع للمواصفات والمقايس الدقيقة للصناعة، وبعضها نصف آلى نصف يدوى، ومنها ما ينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الأفراد من الجمهور.

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة، التى لا تحتاج إلى رءوس أموال أو عمال أو خامات ضخمة أو مساحات شاسعة، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحتمل نسبيًّا، هى وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست منعزلة عنها. ولكنها من الناحية الأخرى لا يمكن أن تقوم - وما قامت هنا - إلا في تضاعيف أحياء سكنية فقيرة أو شعبية، ووجودها نفسه بين ظهرانيها واحد من عوامل خفض درجتها السكنية، غير أنها في النهاية من

أهم مصادر الدخل والعمل للسكان، فمن بين صفوفهم تستمد كل قوتها العاملة.

وأخيرًا فإن تركز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكشافة ملموسة هو في الحقيقة استمرار لتوطن صناعي تقليدي قديم هنا. ففي هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة كان القلب الصناعي للقاهرة الوسيطة، بتنظيماتها ونقاباتها وأسطواتها. وصناعاتها اليـوم تستمد بعضا من مسحة وخصائص صناعات الأمس، إما متطورة أو متدهورة نوعًا، وإن كانت لا تبدى التخصص الجغرافي الذي كان يسود قديمًا حين كانت كل صناعة - على . طريقة العصور الوسطى - ترتبط بشوارع أو حارات معينــة لا زالت مقروءة حتى اليــوم في الأسهاء وإن زالت من اللاندسكيب. من هذه الأسياء - التي لم تعد اسيًا على مسمى بالضرورة - السروجية والسيوفية وسوق السلاح حول القلعة، ثم المغربلين والكحكيين والفحامين والنحاسين... الخ.

فإذا انتقلنا الآن إلى الصناعة الثقيلة (تجاوزًا أو

نسبيًا)، التي هي أحدث جدًّا من الناحية التاريخية، فإنما ننتقل من وسط جسم المدينة إلى أقاصي أطرافها والهوامش. فالصناعة الثقيلة وظيفة هامشية جدًّا بالضرورة، تقذف بها عوامل الطرد المركزية إلى حواف المجمع، بل على انفصال فينزيقي عنه إن أمكن، بينها لا تجد هي نفسها أي فائدة أو منطق في السعى إلى داخله.

وإذا كانت هذه الصناعات حديثة تماريخيًّا وعصرية تكنولوجيا، فثمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائية ومحلية بالضرورة تبدى على قلة أهميتها تركزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنعزل بصرامة عن جسم المدينة. ولعل المثل الكلاسيكي هو صناعة التحجير والجير والطوب. فمحاجر القاهرة وجياراتها مركزة كلها بالضرورة في الجنوب الشرقي في جبل المقطم أساسًا، حيث تتمابع عشرات وعشرات منها في نطاق واضح، ينحصر بين كنتورى ١٠٠ – ٨٠ مترا في الشرق، واضح، ينحصر بين كنتورى ٢٠٠ – ٨٠ مترا في الشرق،

الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التي الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التي تعرف نشاطًا هامًا في صناعة وتجارة الجير والجبس. وليس من الصدفة أن كثيرًا من مباني شرق القاهرة هي من الحجر أكثر منها من الطوب: وعلى النقيض تمامًا من المحاجر التي ترتبط بالجبل، ترتبط القمائن وصناعة الطوب بالجزر النيلية وطميها. فجزيرة الذهب غابة من المضارب، وهي المورد الأول للعاصمة.

وما دمنا هنا في دائرة المحاجر، فقد يمكن أن نمضى منطقيًا إلى الجنوب، إلى طرة والمعصرة، لنجد استمرارًا وظيفيًا، ولكن مع انقطاع جغرافي جزئى وتكنولوجي تام، للصناعة المرتبطة بالمحاجر. فمنذ أوائل القرن قامت هنا وحدات عصرية وعلى أضخم نطاق لصناعة الأسمنت والجير، طفرت في العقود والسنين الأخيرة لتصبح أعظم صرح في هذا الخط لا على مستوى الجمهورية وإنما على مستوى القارة، يغطى إنتاجه الاستهلاك القومي ويجد فائضًا هامًّا للتصدير. والوحدتان اللتان تستوعبان بضعة

آلاف من الأيدى العاملة واللتان تعدان بمقياسها وطبيعة منتجاتها من أثقل الصناعات، هما في الحقيقة مستعمرتان ضخمتان من التخصص المطلق بالضرورة الحتمية، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة تمامًا، ولكنها تدخلان في صميم وشقوق كل نسيج فيه.

غير أننا في الحقيقة إذا قلنا الصناعة الثقيلة فقد قلنا شبرا في الشمال، وحلوان في الجنوب. هاتان قطبا الصناعة الثقيلة، وأعظم منطقتين صناعيتين منفردتين في مصر عمومًا، وتبلغ قيمة رأس المال الذي وضع في صرح كل منها الآن بضعة مئات من الملايين من الجنيهات.

والقطب الشمالى أقدمها، بدأ بمضاربات الرأسمالية والبورجوازية الأجنبية والمتمصرة والمصرية إبان الحرب الثانية للكسب الاستغلالى السريع والصريح في صناعات الغزل والنسيج والتريكو والجوارب خاصة والقطنية أساسًا، في مصانع متهالكة وفي خطة عشوائية وفي ظروف عمالية سيئة. ولكن النواة التي بدأت منفصلة جغرافيًا في شبرا الخيمة غت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى شبرا الخيمة غت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى

توسعت زحفا: إلى الشمال حتى تخطت حدود القليوبية وضواحى مصر، وإلى الجنوب عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه. كها انتقلت بعد ذلك من القطنيات إلى الصوفيات والحريريات والبلاستيك والنايلون، كها غت لنفسها صناعات تكميلية مساعدة من المعدنيات والاطارات. الخ، لتؤلف منطقة صناعية منوعة ومتكاملة أفقيا ورأسيا بمعنى الكلمة.

وبقوة هذا القطب الصناعى، انبثقت أخيرا نويات صناعية أحدث على طول الترعة الاسماعيلية وشارع بورسعيد، زحفت حتى مسطرد، وترتبط بصناعات تعبئة الغاز والكاوتشوك. الخ.. ومن قبل قفزت حول ذلك القبطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن العبش والصفيح لا زالت دون المستوى كثيرًا وتمثل خلية من التزاحم الخطير، تجمع في محيطها بضع مئات من الآلاف من العمال وأسراتهم.

هذا، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الأم نوية

حديثة متواضعة وزنا وحجا ولكنها تناظرها عبر النهر في شمال الضفة الغربية في امبابة، تدور أساسا حول النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجوارب، تخلقت حولها هي الاخرى مستعمرة عمالية - مدينة العمال بامبابة - الا انها مخططة هندسيا على نمط مستطيل. وقد تقاطرت بجوارها أخيرا محطات القوى والمياه... المخ

والآن، ومن وجهة جغرافية المدينة، فلا شك أن منطق توقيع هذه المناطق الصناعية الغلابة يدعو الى التساؤل. لسببين أساسيين:

أولها: أنها تقوم في صميم الأرض الزراعية الثمينة، فهي وإن نقلت بالتحول المهني عشرات الآلاف من الفلاحين إلى عمال فقد عقمت الآلاف من أجود الأراضي، كما أصبحت نفاياتها مصدر تلوث خطير لمياه المصارف والترع.

والسبب الثانى: أن هذا الموقع الشمالى يأتى على النقيض تماماً من كل منطق التخطيط فى بلد تسوده الرياح الشمالية وتطلب لذاتها كتيار منعش شتاء ملطف

صيفا (البحرى). فهى تلقى بكل دخانها وإفرازاتها على سهاء المدينة إلى الجنوب. ولعل هذا وحده أن يفسر كيف خفضت القيمة السكنية لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة وأحياء العمال فى القيطاع الشمال من المدينة هنا فى شبرا وروض الفرج، والساحل فى وقت كان يمكن فيه أن يستقطب السكن الراقى باجتماع الواجهة الشمالية مع الجبهة المائية على النيل.

غير أنه ما من شك أن الذي يفسر هذا التوقيع الخاطئ سكنيًا هو الميزة الموقعية اقتصاديًا، فهنا في الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل وأسرع اتضال مع كتلة الدلتا الغنية مصدر خامها وغذائها الأول وممر التصدير والاستيراد الخارجي. لقد تغلبت مصالح الإنتاج على السكن، ومصالح صاحب رأس المال (قبل التأميم) على صاحب العقار،

وإذ ننتقل إلى حلوان - القطب الجنسوبي - نجد المسرح مختلفا والقصة أحدث بكثير. فهنا ومنلذ عقد

تقريباً غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية منفصلة، سكنية سياحية، ترقد هادئة حول عيونها المعدنية كمدينة من مدن المياه Spa town ، لترتفع الأفران العالية إلى جانب ينابيعها المعدنية. هذه أول قلعة لصناعة الحديد والصلب، قاعدة الصناعات جميعًا، بدأت على خام أسوا والنقل النهرى وتتحول إلى خام الواحات البحري والخط الحديدي. ففي أحضان وادي حوف زرعت غابة من المصانع والمداخن والأفران تتـرامي لبضعــة أميــال وتعمل عبلي خط انتباج واحد كسير متحرك، لتنتبج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات والآلات المعدنية وقطع الغيار وأسياخ التسليح، عدا صناعة السيارات تصنيعًا وتجميعًا، وعدا الصناعات الحربية والأدوات المنزلية الحديثة... الخ

والعملية هنا انقلاب عمراني كامل بقدر ما هي انقلاب اقتصادي. فأمام حلوان إلآن نمو سكاني ومد ضخم، ومن المحتمل أن تنمو حتى تتقابل أو تتقارب يو مع حدود كتلة القاهرة المبنية (١) مثلها دخلت الآن أكثر من

أى وقت مضى فى فلكها الاقتصادى، وإذا كان التوقيع الصناعى هنا سليًا من وجهة مناخ القاهرة، فإن مستقبل مدينة الاستشفاء والعيون يصعب التنبؤ به فى قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة. ولكن المحقق على أية حال أن ليس ثمة مبرر جغرافى طاغ أو واضح لذلك التوقيع أصلًا، إلا أن يكون القرب من مجمع العاصمة، الأمر الذي يعود بنا إلى قضية إفراط المتر وبوليتانية عمومًا.

من وظائف الإنتاج ندلف إلى وظائف الخدمات، وأولها التعليم. وللوظيفة التعليمية في القاهرة دور خاص إن لم يكن فريدًا حقًّا، إذ أن جمهورها من الطلبة يقدر بنحو المليون أى خس السكان، ولا مفر لذلك من أن تبرز مؤسساتها بالحاح في لاندسكيب المدينة. والقاعدة الأصولية أن هذه توزيعها الجغرافي يتناسب مع درجتها التعليمية، بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكلا عنقوديًّا أو شجريًّا أو هرميًّا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها في الإقليم، فمدارس الصغار – وهي اساسا خدمات جيرة – أشدها انتثارًا وانتشارًا، وتوزيعها سكني بحت

أى يرتبط بالأحياء السكنية. أما المدارس الثانوية فخدمات أحياء أكثر منها خدمات جيرة ضيقة، وهى لذلك أقل عددًا وأكثر تباعدًا، ولكنها سكنية أيضًا بالضرورة..

وإذا كان ثمة استثناء للقاعدة فهو الاستثناء الذي يؤكدها، وهو التعليم الأجنبي. فمدارس الجاليات والارساليات الأجنبية كلها تتقاطر (أو كانت) على قلب العاصمة التجاري، فهي - كروادها - أدنى إلى المسحة التجارية وأشبه أن تكون عناصر مقتلعة، مثال ذلك المدرسة اليونانية والألمانية والفرنسية قرب الفلكي (وربما أضفنا تجاوزاً الجامعة الأمريكية غير بعيد) ومدرسة الإرسالية الأمريكية قرب حديقة الأزبكية. المخ أما التعليم العالى فهو وحده الذي يبدى تركزًا جغرافيًا حاسهاً أولا، وانفصالا مطلقا عن السكن ثانيًا، وارتباطًا حتميًّا بأطراف المدينة ثالثاً، وبأطرافها الحديثة الـراقية العصرية رابعاً. ذلك أن الجامعة تحتاج إلى مساحات شاسعة - تتزايد أبداً - مثلها تحتاج إلى الهدوء المطلق.

وهذا يتجسم في ترامى جامعة القاهرة في الجيزة الحديثة على مدى ما بين كوبرى الجامعة وكوبرى الجيزة وبعمق كبير، ثم في انتثار جامعة عين شمس من الزعفران إلى العباسية. وكل منها - يلاحظ - على ضلوع العاصمة غرباً وشرقاً، كأنها قطبان إلا أنها قطبان متنافران موقعاً مع قطبى الصناعة في الشمال والجنوب.

وتمثل جامعة الأزهر توقيعا مختلفا، فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفي حضن الجبل من الشرق توا، ولكنها في أقدم قطاع في المدينة. ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية إلى جانب نوعيتها الدينية. غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزاً عن التوسع المساحى في وسط ذلك الحي الشعبى المكتظ، المذي يضفي عليها أيضاً جواً وطابعاً خاصًا. ولهذا فقد بدأت أخيراً تتوسع بمعاهدها ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيداً في مدينة نصر.

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه الناريخي في الحركة من الجامعات الدينية القديمة إلى الجامعات

العلمانية الحديثة. فالانتقال الحضارى الذى حدث خلال القرن الأخير من التعليم الدينى التقليدى إلى التعليم المدنى العصرى يلخصه ويرمبز إليه الانتقال من جامعة الأزهر إلى جامعة القاهرة، من أقصى شرق المدينة المرتفعة العتيقة الفقيرة إلى أقصى غربها السهلى المحدث الغنى، وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينها، تتوسط المدينة عبر هذا القوس جغرافيًّا واجتماعيًّا كما تتوسطه تعليمًّ، وتتمثل في مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالى والمعاهد المجاورة والمماثلة في منطقة المنيرة «وذلك قبل ضمها أخيرا إلى الجامعات الحديثة، حركة بندول كاملة نحو التغريب حضارة ونحو الغرب موقعاً ا

هذا، ويختلف التعليم الفنى فى تبوقيعه، فهبو عبادة وبأنواعه المختلفة - يبرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الأحياء المعنية. فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الأحياء الصناعية، مثلها يتبلور فى سلسلة متراصة من المدارس الفنية الصناعية وورشها فى بولاق تبرسانية الصناعة التقليدية قديما (مدارس الصناعات الزخرفية

والميكانيكية سابقا، ورشة القطن.. المخ). ويمكن في معنى خاص ان نمد هـ ذه القاعـ دة الى بعض مؤسسات التعليم الجامعي الطبى بحسبان المستشفيات الجامعية تعليها وممارسة معاً. فمن أدعى الظاهرات لفتاً للنظر تلك الكوكبة العديدة والمتلاصقة من المستشفيات الجامعية لكلية الطب ومعامل الأبحاث، التي تتركز في شمال الروضة وعلى طول القصر العيني من كوبـرى المنيل إلى فم الخليج، والتي تحدد قدرها فيها يبدو منه بدأ القصر العيني أيام كلوت. فهذه الدائرة الملمومة لا يكن إلا أن ترتبط في الذهن على الفور، كما هي في الواقع، بأكبر تجمع في الجمهورية للأطباء وللعيادات الـطبية في دائـرة بــاب اللوق وما حــولها، وليس يفصــل بينهما إلا شــارع القصر العيني نفسه.

米米米

ثم ننتقل إلى وظيفة تعد - عكس التعليمية - مناقضة ومضادة للسكنية إلى حد كبير، وهي الصحية. فالمستشفيات بمساحاتها الكبيرة وحاجتها إلى الهدوء

وبأخطار العدوى، لا مكان لها وسط كتلة السكان عموماً وإذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية، فالموقع السائد والمفضل غالباً والمحتم أحياناً هو الأطراف، وربما الأطراف المنعزلة تماماً، وقد نضيف: فى منصرف الرياح كما فى العجوزة ومستشفاها العام الكبير، وكما فى العباسية حيث مستعمرة كاملة من المستشفيات العقلية والحميات والصدرية فضلاً عن كورنتينة بيطرية ومعمل السيرم (قارن على العكس مستشفى الحميات فى شمال امبابة).

وترتبط المدافن، من زاوية معينة، بالوظيفة الصحية، فتصدق شروطها على توقيعها بصورة أشد صرامة. وجنوب شرق القاهرة في منصرف الرياح، عالياً على التل المكشوف، بعيداً عن الطين في الرمل الجاف، منفصلاً عن جسم المدينة، هو مدينة الأموات. والواقع أن سلسلة الجبانات، من الغفير شمالاً حتى الإمام الشافعي جنوبا، تؤلف نطاقا متصلا تقريبا ينحصر بين نطاق المحاجر والجيارات شرقاً وبين سلسلة التلول المتقدمة

غرباً «قطع المرأة، زينهم، عين الصيرة،» التي بدورها تشكل نطاقاً متقطعاً يعزلها ويعزله عن السكن.

ومع ذلك ففى الإمام الشافعى أخذ الحى يزحف على الميت ويكاد يطارده، وتداخلت مدينة الأحياء مع مدينة الموتى بصورة قابضة للنفوس. وإذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التى تحمل أسهاء وأرقاماً، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى، فالطريف أن العزل فيها على الأساس الدينى والجنسى أكثر صرامة بكل تأكيد عنه في مدينة الأحياء، فلكل ظائفة جباناتها الخاصة المطلقة.

تبقى أخيراً بعض وظائف تتشابه مع الصحية فى طبيعتها الهامشية، إلا أنها لا تبدو كذلك دائباً فى القاهرة، فالمؤسسات الترفيهية - الرياضية منها - كالملاعب والأندية الكبرى هى بطبيعتها مسرفة فى حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء الطلق والأماكن المكشوفة، ولأن جمهورها - فى ظل المستوى الحضارى والاجتماعى الراهن - ما زال محصوراً غالباً فى الطبقات القادرة،

فهى تجنع عادة إلى أن تقع في القطاعات الراقية من الأطراف. اعتبر مثلاً نادى الصيد خلف الدقى، والزمالك والترسانة في مداخل العجوزة، واستاد القاهرة في مدينة نصر، ثم نادى سباق الخيل والبولو في مصر الجديدة..

ولقد نظن أن هذا يصدق أيضاً على ناديى الجزيرة والاهلى اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبي ويمثلان مما أكبر رقعة رياضية متصلة في العاصمة. ولكن الحقيقة أن هذا الموقع أقرب شيء إلى قلب المدينة، وموقعه هنا إغا يمشل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجمود عشي anachronism من وجهة ديناميات غو المدن. وهذا نقد قد يمير حساسيات عاطفية عند الكثيرين، ولكنه يفهم عرب ضوء الماضى. فقد أنشأ الاستعمار البريطاني هذه الحلبة لتكون حكرًا أرستقراطيًا له أولًا، وحين أنشأها في العقود الأولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد بندر الجيزة، وكان هذا الموقع هو بالفعل أطراف مدينة القاهرة الهامشية. ولكن غو القاهرة عامة والضفة الغربية

خاصة سرعان ما غمره في مده واحتواه حتى أصبح الآن قريباً جدًّا من قلب المدينة. وهناك أدلة متزايدة على أنه قد بدأ بالفعل يعرقل النمو الطبيعي لهذا القلب، كما أن تدفق رواده عامل اضطراب موسمى خطير في مواصلات العاصمة. والأسـوأ من هذا أنـه يعقم الاستغلال الأمثـل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لا تقدر في موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو. فكل أصابع التخطيط الرشيـد تشير إليه أما كمنطقة سكن راق أو كسكن تجارى عالمي (فنادق سياحية الخ) أو كخلية ومجمع للقاعات المدولية وصالات المؤتمرات والمعارض العالمية السخ. والمنطق التخطيطي يقضى بأن يهاجر إلى الهوامش الجديدة، مثلا كمنطقة نادى الصيد. أما القول بان هذا يحرم القاهرة من «رئة» طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان، فليس ردًا، لأن النيل بشعبتيه هنا هو الرئة الطبيعينة الكاملة، والحاجة إلى رئة إنما تزداد كلها بعدنا عن النهر خاصة في أعماق الضفة الشرقية المكتظة. ثم أن الزمالك والـروضة منياطق مبنية ولم تخنق أحـدًا. وفوق هـذا كله، فها نعرف عاصمة كهرى في العالم تتـوسطهـا جزر نهريــة ا دون أن تستغلها أكثف وأمثل استغلال عمرانى: مثلا السيتى فى باريس، ما نهاتن فى نيويورك.

* * *

مشل هذا أو شيء منه يمكن أن يقال عن الوظيفة الحربية ومؤسساتها في القاهرة، فمنذ العصور الوسطى وطوال تاريخ القلعة مثلا، وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة (بثكناتها ومخازنها بل ومصانع سلاحها) التي تقع كلية خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية، مصدر الخطر الخارجي الأساسي. (على العكس من هذا تمامًا في ظل الاستعمار، كانت هذه المدينة العسكرية في صميم قلب المدينة، قصر النيل، استجابة لا لأغراض الدفاع الخارجي ولكن لأغراض الاحتلال الداخلي) وانتقال موقع وظيفة الدفاع من جنوب شرق القاهرة (القلعة) إلى شمالها الشرقي (العباسية - القبة) يسرمز إلى تطور الفن العسكري.

ولا شك أن الموقع الأخير، الحالى، هو عنق زجاجة القاهرة ومدخلها الاستراتيجي الأخطر. غير أن القصة هنا تكرر مشكلة تراجع المواقع الهامشية مع نمو المدينة، فقد احتوى المد العمراني المدينة العسكرية - على ترامي رقعتها - إلى أن فقدت هامشيتها الشرطية بتجاوز العمران السكني والمدنى لها شرقا نحو الصحراء. وإذا كان هذا عنصر تعويق في نمو المدينة، فهو أشد تعويقا للوظيفة الحربية نفسها. ولقد نضجت المشكلة - التي واجهتها عواصم أخرى كثيرة - بما يسمح باعادة توقيعها ونقلها إلى الأطراف الجديدة.

الطبوغرافيا الاجتماعية

لا تنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية، إن لم ترادفها تقريبًا. والطبوغرافيا الاجتماعية - والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسي جاستون بارديه - هي أساسًا التوزيع الجغرافي للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة. وإذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوفيتية لا تعرف إلا التباين الجغرافي على أساس الإنتاج، بينها تتجانس فيها الأحياء السكنية

مامًا، فإن طبوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وإن كانت لمدينة عاصمة في دولة تتحول إلى الاشتراكية. فنحن هنا إزاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من أن الإقطاع والرأسمالية، ولا مفر لنا لوقت طويل من أن غيز بين الأحياء السكنية على الأساس الطبقى اقتصاديًا واجتماعيًا. بل إن المسكن مازال هو التعبير المادى الأخير عن الطبقة والمنزل هو المنزلة، والمكان هو المكانة.

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها، بهل والجنسية والطائفة أيضًا، أى الأقليات عمومًا، وهذه لها مكانها في عاصمة كوزمو بوليتانية كالقاهرة، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة، على أن من الواضح تمامًا أن وزن الجنسية والطائفة ثانوى وضئيل للغاية بالقياس إلى الطبقة، فهذه وحدها هى أهم المتغيرات وأبرز المعالم في الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ آلاف السنين. وهذا على العكس تمامًا من مدينة كالمدينة الأمريكية تمتاز أساسًا، كمدينة بلا تاريخ

وكمدينة هجرة، بالتنافر الاثنولوجي وتعدد الأجناس والقوميات، ويأخذ فيها الجنس بعدًا لا يقل خطرًا عن الطبقة في تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية.

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم، يكن أن نحصر الأحياء السكنية الفقيرة في أقصى جنوب المدينة وأقصى شرقها ثم أقصى شمالها، مع جزيرة كبيرة في وسطها. أقصى الجنوب: في أجزاء من الجيزة البندر، وأجـزاء من مصـر القـديـة حتى السيـدة زينب، مـرورًا بأبو السعود والمدابخ والمذبح والبغالة. أقصى الشرق: من الخليفة حتى الحسينية، مرورًا بالقلعة والدرب الأحمس والجمالية أقصى الشمال: في أطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وماحولها وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشماشرجي، ثم إزاءها في امبابة. أما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية. وثمة أحيانًا جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية في الضفة الغربية من القرى المبتلعة كبولاق الدكرور أو مدن العمال مثل بين السر ايات. هذه بوضوح هي إما أحياء شعبية قدية التاريخ، والمبانى عتيقة البطرز، بعضها متهالك أو آيل للسقوط، شوارعها بلا تخطيط أو عشوائية الخطة، ترتفع فيها كثافة المساكن بفضل أزقتها وحواربها الضيقة، كما ترتفع فيها كثافة السكان وحجم الأسرة. أو هي أحياء عمالية حديثة التاريخ ولكنها منخفضة المستوى وقد ترتبط ببعض البورجوازية الصغيرة من صغار الموظفين أو بلحرفيين. وأوضح من ذلك كله أن السكن يختلط فيها بدرجة أو بأخرى بالصناعة والتجارة كما رأينا. وهي أخيرًا وفي أغلبها، ولكن ليس دائمًا تقوم على الأرض المرتفعة ذات الكنتورات العالية.

وعلى طرف النقيض، تثوزع الأحياء السكنية الغنية، بدرجاتها المتفاوتة، في معظم النطاق الأقرب إلى النهر من الضفة الغربية شمال الجيزة البندر، ثم في الجيزة الأكبر من جزيرة الروضة، ثم في الجزيرة (الزمالك) ثم نعبر إلى جاردن سيتى وقصر الدوبارة، لنقفز بعدها بعيدًا إلى مصر الجديدة وأجزاء كثيرة من الشمال الشرقى إبتداء من القبة. وأبرز ما يجمع بين هذه الأحياء جغرافيًا أنها القبة. وأبرز ما يجمع بين هذه الأحياء جغرافيًا أنها

باستثناء مصر الجديدة وما حولها تقع في الأراضي المنخفضة على جبهة النيل.

وفي الأعم الأغلب تقتصر هذه الأجياء على السكن، فإن غزتها وظائف أخرى فبعض المؤسسات الإدارية كالوزارات أو المصالح، ولكن بوجه أخص البعثات الدبلوماسية، فهذه تتقاطر على أحياء السكن الراقى، فنجد أغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعشش في جاردن سيتى وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقى وحديثا وأخيرًا العجوزة. على أن السفارات والهيئات الديبلوماسية إذا عدت دليلا على السكن الراقى، فهذا يقتصر على الأحياء السكنية القريبة من قلب البلد يقتصر على الأحياء السكنية القريبة من قلب البلد

أما اللاندسكيب المدنى السائد هنا فهو العمارات انعالية وأحيانا الناطحات الصغيرة، ودائبًا في عمارة عصرية حديثة. أما الفيللات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة أراضى البناء على الأرض السوداء حيث لابد من الحد الأقصى من الاستغلال بالكثافة الرأسية. وهنا نستطيع

أن نرى كيف أن «جاردن سيتى» مثلا اسم على غير مسمى، بل وسخرية من فكرة «الجاردن سيتى» المعروفة في أوربا منذ هوارد، فهى غابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيللات في بحر من الحدائق، ولكن الفيللا تعود فتسود على الرمل في مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى حيث تملك ترف الانسياح الأفقى.

أما السكان، فهذه هي المحل المختار للطبقات الموجهة والمسيطرة والأكثر دخولاً وترفيها وترفا. وقد حدثت هنا منذ الثورة عملية «تتابع سكني» تغير فيها نوع السكان. فقد كانت هذه هي المواطن المفضلة لسكني الأقليات الأوربية الاستعمارية، مثلها كانت المقر الطبيعي للأسر الإقطاعية والرأسمالية والصناعيين من الوطنيين. ومع تصفية هذا وذاك، حلت بالتدريج صفوف من الطبقة الوسطى العليا والمثقفة الوطنية، مما بدأ يخفف نوعًا من حدة تضاريس الطبوغرافيا الاجتماعية في العاصمة.

فيها بين النقيضين، الأحياء البرقيقة الحال والغنية،

تنتشر أو تنحشر الأحياء المتوسطة التي يتفق أنها متوسطة في الموقع الجغرافي مثلها هي في الموقع الاجتماعي والتي تتألف غالبًا من الطبقات الوسطى المعتدلة أو العادية من الموظفين والمثقفين أو التجار. فعدا الجانب الخلفي من الضفة الغربية، تغلب في فم الخليج وتسود في المنيرة وكل ما حولها وخلفها حتى حدود الأحياء المتواضعة في شرق المدينة، ثم تغلب على كل النطاق العرضي الممتدمن الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكيني حتى الوايلي والعباسية ثم في قطاعات كبيرة من ضواحي الشمال الشرقي. هذا عدا القطاع الأكبر والجنوبي من شبرا وروض الفرج. ومن الملاحظ أن خطوط السكك الحديدية داخل المدينة، قمومية كانت أو ضواحي، تخترق عادة هذه المناطق السكنية المتوسطة (أو الفقيرة) حيث تخلق على طولها مناطق موبوءة وتخفض قيمتها الاجتماعية.

ماذا تعنى هذه الخريطة الاجتماعية، وهـل من مغزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث؟. لعل أبرزما يلاحظ هو أن مبدأ الفصل السكنى سائد بعامة، بعنى أن لكل طبقة منطقة، ولكل منطقة طبقة. وأهم من ذلك أن الفصل السكنى سلمى، بعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى كما تتدرج فى السلم الاجتماعى. وبتفسير أوضح فإن منطقتى الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقين، بل الأغلب أن تندفع بينها منطقة طبقة وسطى تفصل بينها، كما في منتصف المدينة عملى محسور جماردن سيتى كما في منتصف المدينة عملى محسور جماردن سيتى المنيرة - القلعة.

وقد تتقارب أو تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة، بل إن هذا أحيانا مطلوب لأن القوة الضخمة العاملة في الخدمة الشخصية والمنزلية في إحداها تستمد من الأخرى، ولكن لابد حينئذ من حاجز طبيعي فاصل، كالنيل بين الزمالك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعي ويصل إلى قمته، وحيث تصل المسافة الاجتماعية إلى أقصاها والمسافة الجغرافية إلى أدناها، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى أكثر اعتدالاً..

أما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة، فيمكن أن نتساءل أولا عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة ففي كثير من المدن الأوربية والأمريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياسًا طرديًّا للمستوى الاجتماعي والانتهاء الطبقي، كلها زادت ارتفع، والعكس. ولكن القاهرة لا تحقق هذه القاعدة إلا جزئيًّا (مصر الجديدة، المعادي، وكل ضاحية منفصلة أو شبه منفصلة) وتعارضها أكثر (جاردن سيتي، والزمالك من ناحية، وامبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية أخرى).

فإذا بحثنا عن احتمال آخر، كالأرض العالية والمنخفضة في المدن الغربية البرادة، حيث الأرض المنخفضة مصايد للضباب والرطوبية، والأرض العالية صحية جافة ومشرقة، وحيث - بالتالي - «العالي اجتماعيًّا هو العالي جغرافيًّا، والواطئ اجتماعيًّا هو الواطئ جغرافيًّا، والواطئ جغرافيًّا، وجدنا أنفسنا في القاهرة إزاء قلب رئيسي وإن يكن غير كامل للقاعدة فشرق المدينة

الأعلى تضاريسيًا يحمل الأحياء الرقيقة الحال والعمالية والشعبية، بينها غرب المدينة المنخفض على النيل وفى جزره وعلى ضفته الغربية يحتشد السكن الغنى. ولكن يعود فيشذ قطاع كبير في بسولاق والشمال (شبرا الخيمة وما حولها وامبابة) فهذه كلها أراض منخفضة وأحياء متواضعة.

هل هو إذن ضبط الرياح السائدة؟ فقد لوحظ في الغرب أن السكن الراقي يسعى إلى أن يحتكر غرب المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة، طازجة غير ملوثة. وفي مصر الحارة، فليس ثمة شك أن الرياح البحرية السائدة مرغوبة جدًّا وأن لها ثمنًا يدفع في فيم الأرض أو الإيجار، وإن المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة تنجذب أحياؤها السكنية الراقية إلى الشمال كما تنجذب البوصلة المغنطيسية، ولكننا في القاهرة نصطدم بشبرا الصناعية وامبابة وأحيائها المتواضعة في أقصى الشمال، وإن كانت مصر الجديدة وضواحي الشمال الشرقي مكشوفة للرياح «البحرى» منطلقة الشمال الشرقي مكشوفة للرياح «البحرى» منطلقة بلا عائق.

لا يبقى إلا أن تكون جاذبية النهر، فللجبهة المائية المنعشة في مناخ حار، فضلا عن المنظر الطبيعي في اللاندسكيب مغنطيسية لا مفر منها على السكن الراقى، ومن الواضح أن هذا يمثل جزءًا كبيرًا من الحقيقة في القاهرة: اعتبر معظم الضفة الغربية ثم الجزيرتين، فجاردن سيتي، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة، حيث تقع بولاق وامبابة على النهـر بينها تقـع مصر الجـديدة ابعـد ما تكون عنه. على أن هذا لا يقلل من أهمية عامل الجبهة المائية، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة، راقية كانت أو متوسطة، يطل على النهر عـادة أفضل المسـاكن وتقل درجتها كلها بعدنا عنــه.. وفي الضفة الشــرقية مثــلا ينخفض مستوى السكن كلها بعدنا عن النيل في انحدار مستمر من الراقي إلى المتوسط إلى الفقير، ولا نقول إلى سكن الموتى في أقصى الشرق!

والخلاصة الصافية؟ لا شك أن كل هذه العوامل نعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئيًا، وليس فيها مفتاح أحادى. والسبب أن القاهرة مدينة معقدة مركبة بحكم تاريخها الطويل وتنوع أرضيتها كموضع ما بين الجبل

والنهر وما بين الصحراء والوادى، ولكن من المكن أن نقول إن ضابط الجبهة المائية فيها أقوى بعامة من عامل الحرياح البحرية، وهذا بدوره أقوى من عامل التضاريس.

ذلك إذن وجه المجتمع القاهرى في بيته الجغرافي أو بيئته الطبيعية. غير أنه إن حددت البطبقة ملامحه الأساسية، فإن الأقليات تكملها بلمسات نهائية ترصع صفحته دون أن تخرج عن الفرشة القاعدية. ولقد حدثت تغييرات هامة في العقد الأخير في حجم وتوزيع الأقليات الأجنبية والجاليات الأوربية نتيجة «للخروج الأبيض» مع التحرير، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير مع التحرير، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشنرات من الآلاف، وإن قد كانت دائبًا أقل منها في الأسكندرية بالذات.

ففى مرحلة الأوج فى الثلاثينات والأربعينات، كانت أبرز حقيقة عن توزيع الأوربيين فى القاهرة تجمعهم فى النصف الشمالى منها، أو بالأحرى غيابهم تمامًا من النصف الجنوبي، وفى النصف الشمالى كان توزيعهم

أقرب إلى قلب المدينة، وكان مركز الثقل في جاردن سيتى وقصر الدوبارة وفي الاسماعيلية والتوفيقية، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان في كثير من الشياخات. وحول هاتين النواتين، وعدا الزمالك، كانت تجمعاتهم تستمر متصلة ابتداء من الفرنساوى حتى باب اللوق ومن غمرة حتى شبرا، وفي كثير من شياخات هذه الحلقة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان.

وأهم معانى هذا التوزيع هي:

أولاً: ميل طبيعي للأقليات والجاليات الأجنبية إلى التجمع وعدم الانتثار تمامًا بين الوطنيين.

ثانيًا: انجلذاب (غير سألوف عند الوطنيين ولكنه منطقى للأجانب) نحو قلب المدينة التجارى حيث يربطون بين العمل والسكن أو حيث يطهر السكن التجارى (الفنادق والبنسيونات الخ).

ثالثًا: يتبع توزيع الأقليات الأجنبية الإطار الطبقى العام. فكانت العناصر الأكثر غنى ونفوذًا منهم ترتبط بالأحياء السكنية الراقية كجاردن سيتى والزمالك،

والعناصر الأقل مكانة بالأحياء البورجوازية المتوسطة، ولكنها في جميع الحالات كانت بعيدة تمامًا عن الأحياء الوطنية الفقيرة.

رابعًا: ارتبطت بعض الجاليات ببعض المناطق تقليديًا أو بصفة خاصة: الانجليز بجاردن سيتى والزمالك عدا المعادى المنفصلة، واليونانيون والطليان واللفانتيون عدا عداخل شبرا تجاه المحطة (الشوام في قصورة الشوام خاصة).

خامسًا: وأخيرًا، فرغم بعض ملامح الانعزال النسبى عن الوطنيين، فلا مجال قط للحديث عن عزل سكنى صارم بالمعنى المعروف في العواصم الاستعمارية في أفريقيا أو آسيا. بل إن بعضًا من العناصر الأقل ثراء من الأوربيين اندمج تمامًا في كتلة السكن الوطنى، ومن الناحية الأخرى لم تظهر قط مدينة أوربية مقفلة بالمعنى الاستعمارى وحتى الانجليز رغم السيطرة الاستعمارية وتقاليد العنجهية الأنجلوسكسونية تحايلوا على العزل السكنى المقنع من خلال الانفصال الجغرافي الطبيعى حين

غوا لأنفسهم ضاحية المعادى ولكنهم فشلوا، وغزتها العناصر الوطنية. وهذا كله يذهب ليؤكد أن الفارق الحضارى والجنسى بين الأوربيين والمصريين كان دائمًا على غير ما عرف الاستعمار في كثير من بلاد العالم الثالث، وإنه عجز عن أن يخلق في مصر أي شبهة من «حاجز لوني».

أما من الناحية الدينية، فقد كانت هذه الجاليات الأوربية ذات التركزات غير العادية في قلب المدينة أو قربه تتخذ مؤسساتها الدينية في ذلك القلب التجارى أو قريبًا منه، وذلك بصورة شاذة غير مألوفة، وليس في الأحياء السكنية كما هي القاعدة في مؤسسات الديانات البوطنية. وحتى بعد تصفية هذه الأقليات والجاليات، فمازالت مؤسساتهم تحتشد في ذلك الوسط التجارى: مثلا كاتدرائية الإنجليز بماسبير و، كاتدرائية سان جوزيف بعماد الدين، عديد من الكنائس في باب اللوق والفلكي بعماد الدين، عديد من الكنائس في باب اللوق والفلكي وكنيس الإسرائيليين في شارع عدلى.. الخ.

هيكل العاصمة أقاليم القاهرة الكبرى

من المسلم به أن القاهرة، بتاريخها الألفى العريق، مدينة ناضجة مورفولجيًّا من وجهة جغرافية المدن، بعنى أنها مرت براحل وأدوار عديدة من التجربة والخطأ، وإعادة التجربة والتصحيح، حتى استقرت واستوت خطتها وبنيتها العامة على أنسب تنضيد وترتيب ممكن لبيتها من الداخل.

ومن هذه الزاوية، فالمفروض أن تكشف القاهرة لدارسها بسهولة عن هيكلها الاساسى وعن الخطوط العريضة في مورفولوجيتها. غير أن الواقع أن القاهرة مدينة معقدة نوعًا من حيث الموضع الجغرافي الذي يحتويها. فاختناقها بتلال المقطم في الشرق منع بصرامة توسعها في هذا الجانب وفرض على نموها اتجاهًا احاديًّا أو قبل نصفيًّا نحو الشمال والغرب أو الشمال الغربي،

وبذلك حد من حريتها في الانطلاق نحو النمط الدائري وحصرها في نمط مروحي بالتقريب.

ونقول النمط الدائرى لأنه باستثناءات ليست قليلة الأهمية ومع تحفظات معينة فإن المدينة أى مدينة حين تترك لنفسها في بيئة جغرافية سهلية تخلو من العقبات الطبيعية فإنها في الأعم الأغلب تميل بالنظرية إلى أن تنمو حول قلبها، كجذوع الأشجار، على شكل حلقات متتابعة نحو الأطراف، وتكتسب محيطاً دائريًّا أو شبه ذلك، والسؤال هو: ما النمط، ما المنطق البنائي القائد أو ذلك، والسؤال هو: ما النمط، ما المنطق البنائي القائد أو الحاكم الذي يمكن أن نستشفه من خلال وجه القاهرة بهلامحه وعناصره ووظائفه ودينامياته التي طالعنا وحللنا؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القاعدة المذى ارتكزت عليه القاهرة في نموها، وبينها لم يعد اجتيازها للنيل عقبة على الإطلاق، على الأقل منذ القرن الماضى، فقد ظل محور المقطم منذ البداية إلى اليوم عقبة طبيعية صارمة. ومن الناحية التاريخية، وعبر العصور الوسطى، فإن أحضان المقطم المباشرة التي نشأت فيها

هى بطبيعة الحال «النواة النـووية» للمـدينة مثلها كـانت قلبها المركزى في مراحل طويلة من جياتها

وقد كان غط توزيع الوظائف والمبانى والسكان فى مدن العصور الوسطى، خاصة الإسلامية منها، بسيطاً فى جوهره يتركز – كما يلح علينا ديكنسون – حول السلطان: فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به قصور الأمراء والكبراء ثم التجار ثم العامة وصغار الناس حتى إذا وصلنا إلى هوامش المدينة ساد الزراع العاملون فى حقول المدينة وأرباضها.

وشيء من هذا توحي به القاهرة العربية الإسلامية. فدائمًا منذ الفتح العربي وقبل أن تبني القلعة في الأيوبية ولكن بعدها بصورة أقطع، كان مقر الحكم لصيقاً أو يكاد بسفوح المقطم في الشرق، ومن حوله كانت تترى أحياء الأعوان والمقربين وأهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين ثم العامة، بينها كانت بطائح وشطوط النيل التي ترصعها المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة إلى أخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة، وأحيانًا ملاعب ومتنزهات. الخ

وقد يمكن أن نعبر عن هذا فنيًا بأن نقول إن غط القاهرة العربية المورفولوجي كان حلقيًا، وإنما بالتقريب على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم. وربما أضفنا أن الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر - مع كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع - بهيكل مدينة شيكاغو المشهور في دراسات المدن، حيث يتركز القلب على جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة الحلقية من الداخل نظامًا نصفيًا وليس دائريًا كاملًا.

ولكن قاهرة اليوم أشد ما تكون تعقيدًا بالمقارنة. فمنذ القرن الماضى أخذت المدينة تهجر ظلال المقطم وتزحف نحو النيل، وأخذ كثير من أجهزتها ومؤسساتها ووظائفها الحيوية تصرف بالتدريج من قلبها القديم فى شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب. ولقد بدأت هذه الأعراض مع محمد على ولكنها تسارعت بعده منذ إسماعيل خاصة، ولم تكف منذئذ حتى الآن. مقر الحكم، مثلًا، كان القلعة أيام محمد على، ولكنه هو نفسه الحكم، مثلًا، كان القلعة أيام محمد على، ولكنه هو نفسه

بدأ بشتل وزرع أجهزة إدارة جديدة وعديدة في منطقة الأزبكية، إلى أن نقل إسماعيل الحكم فيها نهائيًا إلى عابدين. هذا مجرد مثال دال، ولكن كل تاريخ القاهرة الحديثة إنما هو عمليتان إيكولوجيتان رئيسيتان: من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب، وإعادة توزيع وترتيب لأجهزتها وانسجتها وأعضائها ووظائفها واستعمالات الأرض فيها من الداخل.

ولا شك أن أبرز المظاهر المؤثرة والملموسة لديناميكا القاهرة، كها تنبئق من تفاعل هاتين العمليتين، هي هجرة القلب التجارى المركزى. وهي نتيجة حتمية. فقلب أي مدينة هو في الحقيقة «عاصمتها»، هو في المدينة كالعاصمة في الدولة تمامًا. وكها أن هناك علاقة إيقاع غير منظورة ولكنها محققة بين حدود الدولة السياسية وبين العاصمة السياسية، ينبضان، معًا ويتأرجحان معًا، فكذلك قلب المدينة: يرتبط وثيقًا ويتذبذب حثيثًا مع حدود المنطقة المبنية، كلها اتسعت حدود هذه، كلها تحتم على القلب أن يتحرك معها ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطه. هكنذا

القاهرة: كما نمت حدودها نحو الشمال والغرب أساسا، نحو الشمال والغرب أساسا، نحو الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها.

ومن السهل ربما أن نتتبع حركة القلب التاريخيــة هذه من الأزهـر والمـوسكي في مـطالـع القــرن، إلى العشـة . والأزبكية بعد ذلك، إلى الإسماعيلية خلال فترة الحرب الثانية وما قبلها. وبمزيد من التحديد فقد كان كلير جيد في الثلاثينات يعد عين قلب القاهرة التجارى النابض حول شارع عماد الدين. ومنذ ما بعد الجرب وصلت الحركة الى نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليــو وطلعت حــرب (فؤاد وسليمان سابقا)، ومن بعدها انحدر الرحف على طول شارع طلعت حرب وقصر النيل وتجباه ميدان التحسرير حتى شارفه، وحتى أصبح هذا من مراكز قلب القاهرة وقطب الجاذبية فيها، حيث أخذت المؤسسات والأجهزة والهيئات المختلفة من تجارية ومسراكز خبدمات وإدارات وشركات وفنادق كبري تتقاطر حوله، وأخذ هو يكتسب صبغة أكثر وأكثر تجارية وحركية.

وكمقياس اختبار أو كرموز لهذه الحركة، اعتبرت.

هجرة فندق شبرد من الأزبكية، والجامعة العربية من الداخل، إلى النيل، ثم قيام الهيلتون، ولا تنس قيام المجمع قبل الجميع. كذلك لاحظ زحف وانتقال منطقة الاضواء Bright Light Area (المسارح ودور السينها واللهو وشرنقة المقاهى والمطاعم الكثيفة التى تغلفها.. المخ) من شارع عماد الدين في الثلاثينات إلى شارع طلعت حرب الان..

لقد تمت دورة بندول كاملة في حياة المدينة وقلبها، انتقل فيها من سند الجبل إلى شاطئ النهر، ومن ضلوع المقطم إلى ضفاف النيل، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة إلى قلب تحولت مدينته من مدينة اكروبوليس إلى مدينة فيضية، ومن موضع منحدر تلى الى موضع يمتطى نهرا ويضع قدمًا في ضفة وقدما في الاخرى حتى أصبح هذا هو محور المدينة الجديد.

ولا شك أن هذا الزحف الهادف إنما يتم فى جزء كبير أمنه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمراني الضخم، والمتفجر أخيرًا، على الضفة الغربية بالذات وحيث ينتظر

المنزيد من النمو والانسياح. وهو أيضًا يحقق النظرية الأصولية من ان القلب يـزحف نحو الاحيـاء السكنيـة الراقية. كذلك فانه يدل على أن القلب بـرقعته المـزدحمة الحالية بدأ يكتظ ويضيق بمؤسساته وأجهزته الكثيفة والمكدسة، وبمثل ما أن بعض هذه المؤسسات بدأت هي الأخرى تضج وتضيق بضغطه وتسعى إلى أطرافه الأكثر هدوءًا واتساعًا لأغراضها. خذ مثلا دور الصحافة الكبرى في القاهرة: تجد منذ مدة هذا الاتجاه الى الابتعاد عن عين القلب إلى هوامشه، ابتداء من قيام دار أخبار اليوم في شارع الصحافة، إلى انتقال الأهرام أخيـرًا جدًا إلى شارع الجلاء. ومن قبل يلاحظ المـوقع الهـامشي من القلب في بقية دور الصحف: الجمهورية تجاه الأزبكية، الشعب في القصر العيني، الهلال في المبتديان.. الخ. كذلك مرافق الادارة المركزية، لم يعد القلب الإدارى يتسع للمزيد منها وبدأ يلفظ نموه بعيدًا، وأحيانًا خارج القلب تمامًا، كوزارة الزراعة بالدقى من قبل ووزارة الإصلاح الزراعي من بعد، وكعدد آخر من الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية.

هذا، واذا كان لنا أن نحدس المستقبل من مؤشرات الحاضر، فان ضغط القلب من أجل المكان سيفرض نفسه قريبًا حين يصطدم بالنيل ومن ورائه خاصة ملاعب الجنريرة التي هي حقيقة استغلال سيئ ومسرف لموقع محوري والتي قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعي، ولكنه صراع وظيفي لا يكن أن تكون الغلبة فيه إلا للقلب في النهاية. وقد لا يكون قيام فندق عالمي تجاري ضخم سسيراتون أو سفنكس (١) – على رأس الدقي السكني في قفزة ضفدعية ضخمة وشاذة، بلا مغنزي ودلالة على هذا الاحباط الذي تفرضه تلك الملاعب مؤقتًا.

كذلك فإن كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة، التى تبدو اليوم ناضجة تمامًا لجراحة كبرى في إزالة العشش، هى بالقوة الاحتياطى والرصيد الطبيعى لتوسع القلب في بعض جوانبه في المستقبل، وهي قد بدأت بالفعل تتلقى أو تستشعر وقع بعض فروعه وامتداداته على طول كورنيش النيل في ماسبيرو (مبنى الإذاعة والتليفزيون مثلا، الخ)

هــذا عن حركـة القلب غربًا، والمهم والسؤال الآن:ما الذي حدث للمنطقة التي هاجر وانحسر عنها القلب بالتدريج؟ انها ببساطة - ولكن ببسالة، إذ أن المقاومة تستمر عقودا - تفقد بالتدريج أجهـزة وعناصـر التجارة والنشاط التجاري التي هي مقومات القلب وصفته الاساسية. فالقلة من محلاتها ومؤسساتها الاكثر طموحا والاقدر على التكيف الحديث تغادره الى القلب الجديد كلينة او قد تتخذ لنفسها فيه فروعا عصرية، والكثرة تذوى وتذبل بالتدريج ويتضاءل روادها ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتمادا على ولاء جمهور واسع الدائرة ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات، وقد تتحول الى مخازن وموردين للجملة أو متاجــر محلية للحي أو حتى للجيرة، وفي نهاية الدورة قد تصفى اعمالها فإذا بمبانيها. ومنشآتها تتحول إلى استعمالات جديدة، سكنية أساسا، أو قد تعدل لتستقبل ورشا صناعية صغيرة لبعض الحرفيين أو الممولين.. إلىخ. وبعبـارة اخـرى، تتحـول المنطقة التي تراجع عنها القلب القديم الى مجرد اطراف وهوامش أو رقع من جسم المدينة العادي بحلقاته الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية او الحلقة الداخلية كها تسمى.

وعلى الفور فإن هذه العملية تضع ايدينا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة، وتعد قلبا للعملية الشائعة في ديناميات وبمو اقاليم وحلقات المدينة الداخلية. فالقاعدة مع بمو المدينة ان يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به، فتتحول وظائفها من خليط من السكن والصناعة الخفيفة عادة الى التجارة، ولكن التحول هنا في المناطق الشرقية من القاهرة والتي كانت القلب القديم، ثم على العكس بتراجع وانحسار القلب، وبالتحول من التجارة الى المختلط بالصناعة.

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنا تكون ضيقة مختنقة نوعا وربما غير مكتملة الخصائص والمعالم في هذه القطاعات، خاصة اذا ما قورنت بمثيلاتها على الجوانب وفي القطاعات الأخرى من المدينة، ولا تتسع الا مع وبقدر المزيد من تراجع القلب

وانحساره عنها. والنتيجة الصافية أن مورفولوجية حلقات المدينة الداخلية التي كانت في العصور الوسطى نصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائري بصورة عامة، الا أنه هنا منبعج مختنق في شكل مروحي.

هذه العملية كلها لا شك بدأت في القرن الماضى حين أخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضارى الجديد، ولا جدال أنها ظلت تشتد مع شدتها، ولكنا لا نستطيع أن نتتبعها بالعين المجردة الا في الاجيال والعقود الأخيرة حيث دخلت مرحلة النضج. هذا ويلاحظ في تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضاربات والنشاطات المالية الاستعمارية والجاليات الأوربية على اقتصاديات المدينة قبل التحرير، وخاصة في قاهرة ما بين الحربين، أعطت منافسة خطيرة وقاتلة للسروعات وأعمال ومتاجر البورجوازية الوطنية المتوسطة والصغيرة، مثلها نشرت تطلعات الاوربة والتغريب بين الجماهير... الخ.

وهذا كله أتى لحساب القلب العصرى «الاوربي»

الحديث، وعلى حساب القلب التقليدي الأفل، وساعد على تصفيته وذبوله بالتدريج. والكثيرون ما زالوا يذكرون أو لا شك سيتذكرون حالات أفىلاس كثير من محلات الموسكي والأزهر.. النخ في تلك الفترة، أما اكتمال الهجرة من القلب القديم الى الحديث فيرمز اليه ببلاغة تحول مركز الثقل والاهمية من شارع الموسكي الى شارع طلعت حرب، ومن ميدان العتبة الى ميدان التحرير. وقد يمكن أن نعتبر العتبة هي الحد الفاصل اليوم بالتقريب بين القديم والحديث في قلب القاهرة التجاري. وفي الوقت الحالي، أصبح القلب القديم - المـوسكي والأزهر والغورية.. الخ- يلعب في كيان المدينة دورا أقــل حيويــة وثقلا مما كان في الماضي، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الأخير للقديم في كل شيء..

وعلى الفور، لن يخطئ أحد أن ها هنا ثنائية أساسية في قلب العاصمة التجارى: قلب جديد نابض متنام، عصرى حديث الطراز، في الغرب، وقلب قديم عتيق الطراز، آفل وفي انكماش مطرد، في الشرق. وهذه التنائية، التي يعرفها قلب كل مدينة هامة في العالم الثالث، تلخص وترمز إلى الثنائية الحضارية القاعدية التي تميز هذا العالم الثالث منذ عصر الاستعمار الأوربي والاحتكاك الحضاري مع الغرب، ومن العلميف في القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بين الموقع الجغرافي والموقع الحضاري داخل هذه الثنائية: فالقلب الشرقي القديم في الشرق، والغربي الحديث في الغرب؛ على أن هذه الثنائية مرحلية في جوهرها وان طال الامد، ولنا أن نتوقع، ولكن ليس قبل عقود على الاقل، أن ينذوب القلب القديم في الجديد لأي نهاية المطاف مع اكتمال التحول الحضاري والتقدم المادي.

وهنا وفي النهاية تفرض نفسها مقابلة لها مغزاها وطرافتها، وذلك ما بين هذه الثنائية الحضارية وما رأيناه من قبل من تجانس بشرى في السكان. فاذا كان قلب القاهرة يلخص التنافر الحضاري، فان تركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشرى. وهذا وذاك على العكس عاما من المدينة الأمريكية: تنافر جنسى وبشرى حاد

وصارخ، وتجانس حضارى إلى درجة التنميط الممل ربا. ولعلنا لا نغالى اذا قلنا في هذا الصدد أن القاهرة أقدم غواصم العالم القديم ترمز له وتلخصه مثلها ترمز للعالم الجديد وتلخصه مدينة من أحدث عواصمه كواشنطن أو نيويورك...

الفصت الالأول

القاهرة.. بنت الصحراء

القاهرة، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا، ٣,٣٤٨,٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى) لها لون صحراوى، والذى شادها هو إيمان ربيب الصحراء، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات يبدأ من البحر الأبيض المتوسط ويتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقبقبة إلى أن يتصاعد خلف الأهرامات ليهوى إلى واحة الوادى، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف ألوان ما بين الرمادى والبنى، حتى الطائرات فأنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها

إلى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء.

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التي تتشبث بحضنها، فالأهرامات العجائب التي أقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملي جرى نحتها أولا من تلال المقطم ثم دفع بها إلى الغرب طوفا على الماء عبر الوادى إذ النيل في عز فيضائه مجتازة موقع المدينة اليوم، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد في عمارة الأمراء المسلمين للمساجد والقصور.

أما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة إلى صحراء النسيان، فقاعة الذهب التى كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشيها من خيوط النذهب قد اندثرت هى والحجرات الأربعة الآلاف التى كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذى كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن إشارته، وكذلك لم يبق أثر لبهو الزبرجد فى الديوان الكبير، وتلال المقطم التى جاءت منها الأهرامات

والتى تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها على أبى الهول فى الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة كأنها تهويمات لم تتم من وحى أسطورة قوطية.

أن الصحراء تغزو المدينة سواء في ذلك طرقاتها الفسيحة أو الأزقة المتعرجة في الأحياء القديمة، وتهب رياح الخماسين من ليبيا في شهر مايو تحمل معها ترابًا ناعها يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفي على المدينة - زرعها وأبنيتها - كساء من مسحوق رمادي. أن أهداب المصريين الطويلة هي سلاح ضد التراب، لا مجرد زينة.

ومباهم القاهرة - شأنها شأن مباهم الصحراء - تزداد جلاء لأنها فوق لوحة متربة. عديندة محال بيع عصير المانجو وقصب السكر لإرواء الحلوق الجافة من العطش الشديد. وفي أركان معتمة رثة الحظ تتألق زهور بألوان متوهجة وحينها تغيب الشمس أخيرًا بعد نهار قائظ من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض الطرقات رائحة فريدة هي خليط من أنفاس الفل

والياسمين وزخمة وحوش الفلا.

والصحراء كالبحر، هيهات أن يقال عنها خلاء محصن، بـل أنها ملتقى قوى عـديـدة، وكـما ربط البحسر ما بين الجزر اليونانية في العهود الخوالي، فان الصحراء ربطت بين البغيد والبعيد من أقطار الشرق الأوسط، وقد وفد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التاريخ فهي وأن اتخذت اسها عربيا فقد حظى موقعها باهتمام كبير من قبل أن ينتشر العرب من جزيرتهم بزمن طويل فعند هذا الموقع الذي يزداد فيه النيل رحابة ليضم بين ذراعيمه أرض الدلتا، وهي على شكل مروحة، أقام الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهرم المدرج في سقارة، وهو أقدم بناء من الحجر في العالم كله. لا يزال يـطل على مقابر منف، تراه بالعين المجردة من أعلى العمارات في القاهرة) وقد أقام الفراعنة أهم مقابرهم فوق هضبة الجيزة، لا تبعد عن قلب القاهرة - ميدان التحرير -إلا مسافة ٤٠ دقيقة بالاوتوبيس رقم ٨. ومدينة عين شمس - هليوبوليس الآن يربطها بالقاهرة قطار المترو - كانت لها سمعة عالمية في العلوم، ولكهنتها فضل

عـلى هيرودوث وأفـلاطون. وقـد أطلق اسم عين شمس على واحدة من جامعات مصر الأربعة.

وأشد زائرى القاهرة تأثيرًا عليها لم يأتـوا ببضاعـة التجارة، بل بـأفكار دينية، فالقاهرة اليـوم - شأنها في ذلك شأن مدن كثيرة - وليدة أحداث موجة من سلسلة أمواج المد البشري، تتناثىر فيها شواهد عديدة على تعاقب الأديان. فقد أقام العبرانيون (الـذين ذكـرهم القرآن باسم بني إسرائيل) في شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم في صناعة الطوب، ثم استوطنت جاليات يهودية - قبل ميلاد المسيح بعدة قسرون – على ضفاف النيل، وكان أكبر مراكزهم في الإسكندرية بالقرب من مصب فسرع النيل الغسربي، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلسفة اليونانية، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن «اللوجوس» أو «الكلمة» في شـرح عقيدة التجسد الإلهي، ولكن العائلة المقدسة اختارت المدينة . الرّومانية بابلون في مصر – وهي مكان القاهرة اليوم – ملجــاً لها عنــد خروجهم من فلسـطين هربًــا من طغيــان هيرود. ولا يزال الـرهبان الأقبـاط يقودون زوار كنيسـة

أبو سرجة لمشاهدة قبو رطب حيث نام «اللوجوس» وحراسه. بالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة ثمينة من التوراة.

ولكن لا الكنائس ولا الكنيسات تغلب على افق القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية. إنها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى. هي عند المسلمين لا تقل جلالاً عن مكة، التي تتجه إليها قبلة الصلاة في مساجد القاهرة، ولا عن المدينة مثوى الرسول. وإذا كان الأفق من حول القاهرة قند ارتسمت عليه منذ سنة ١٩٥٢ ظلال ناطحات السحاب وصروح أخرى هندسية، فإن العين لا تلحظ على هذا الأفق إذا ترامت نظرتها فوق الأسطح الغبراء إلا المآذن المشرئبة للسهاء، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خس مرات في اليوم.

وللقاهرة - لأنها مدينة صحراوية - ثروة نباتية تنفرد بها: زهور لا تنمو في الشمال إلا داخل بيوت من الزجاج وأشجار تضفى زينتها على ما حولها من قتامة،

أشجار الكافور التى تخشخش أوراقها المرقيقة، أشجار السنط التى لا ترهب الجفاف، أشجار الجمين، أشجار التبن البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبت منها جذور أشجار جديدة معتمة، ثم النخلة التى جعل القرآن ولادة المسيح تحتها. وإذ كانت الساء لا تمطر إلا نادرا فان اللون الأخضر يشوبه على الدوام صفرة مغبرة..

ولكن دع عنك النبت والحجر، فإن الذى يجعل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية إنما هو هذا النهر الذى يهبها الحياة، فالمدن الأخرى التى تقوم فى الصحراء حيث الواحات إنما يغلها العطش ويهددها، أما القاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل – أطول أنهار العالم القديم – يحمل إليها العطايا من شاطئ الأطلسي عبر الغابات والأحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى.

الفضل المناني

القاهرة.. بنت النيل

منذ أن امتنع ورود ماء فيشى للقاهرة، لا مندوحة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفًا على ماء النيل، هذا النهر الذى يلاحقه شعار: «من شرب منه عاد إليه»، وأصدق منه الشعار القائل: «من ارتوى منه لم يطق السلو عنه». أما للفلاح فماؤه، وإن عكر فهو نعمة فيها الحياة، فالناس تتشبث بهذا النهر وتلوذ به، ففى فراقهم له عذاب الإشراف على الهلاك.

وهذه العبارة الأخيرة ليست من وحى بلاغة خطابية، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيدًا عن شريط الماء وضللت السبيل فستموت عطشًا إن لم يتداركك البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول، فالمطر نادر، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة ببلا اسم في بيداء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الأحمر إلى شاطئ الأطلسي عبر الصحراء الكبري.

أما أصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه، فاللون المفضل عند عجائز العقيلات في انجلترا لحفلات الرقص يوصف بأنه أخضر نيلي، فاقترن النيل بخضرة يختص بها – اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها الفرشاة التي رسمت ريش الطاووس، أو عند منتصف الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ.

أما الوصف الذي لا يلحق النيل فهنو إباء النبات، فإن مجراه قد خضع ككل شيء في الوجنود - لتصاريف الزمن. والخضوع هنا تنظيمي، للقضاء على ننزوات النهر في الماضي. إن النيل لمصر هو شريان قلبها. وكان أول بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الإسلام هو مقياس النيل، عند الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة،

ولا يزال هذا المقياس ماثلا للعيون وإن أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراعنة مقياس للنيل في الأقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بشر عميق كسيت جدرانه بالحجارة، في وسطه عمود له تاج من طراز كورنثى. و«الدراع» هو وحدة القياس المبين عليه. إن استنباء مقياس النيل أشد لزومًا وأجل خطرًا من التكهنات بحال الطقس عند الأوروبيين قبيل العطلات الصيفية، فعلى مقدار ارتفاع المياه في المقياس يتوقف الغد: إما خصب وإما جدب.

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقية يقع في أواخر أغسطس. حينئذ تخرج المدينة كلها للترحيب بمقدمه في احتفال يسمى «وفاء النيل». أما في السنين التي يخشى فيها أن لا يفي النيل كعادته، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطئ الشرقي وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الأديان جميعها - ائمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود - فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء. كل يقرأ في كتابه المقدس - ليمن الله عليهم بنيل واف عميم. وكان

الفراعنة في القديم يحسبون الفيضان من دموع إيريس وهي تبكى على أوزيريس، وكانت لهم طقوس تتصف بالقسوة، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهي رحيمة، إنها طقوس زفاف النيل العاشق وعروسه «عروس النيل» كانت في القديم فتاة يضحي بها كها كان يضحي أهل أثينا ببعض فتياتهم على قرون «ميناطور» الغول المذى نصفه إنسان ونصفه ثور، ثم أصبحت العروس دمية في حجم فتاة.

والآن تتولى السدود تنظيم النهر، فلن يتكرر جفاف شهر يوليو الذى يعقبه، بشكل درامى، غمر الماء فوق شواطئه الطينية العامرة بالفيران. لم يعد يتألف موكب الزوارق للاحتفال بالفيضان، وإذا علا ماء النيل في أوائل الصيف فإنه علو قليل، حينئذ يشكو أهل القاهرة من الرطوبة تضاف إلى الحرارة، فيهرب الأغنياء منهم إلى الاسكندرية، رطبة هي أيضًا ولكنها اندى نسيًا، دع عنك شكوى أهل القاهرة أيضًا من كثرة البعوض.

لقد بدل النيل مجراه على مر النزمن فتبدلت أيضًا

مرافقه، فأقدم موانئ النيل على الشاطئ الشرقي للقاهرة (أما منف فهي على الشاطئ الغربي) كانت بالقرب من موقع بابيلون الرومانية إلى الجنوب من القاهرة بنت اليـوم. وفي القرون الـوسطى كـانت الميناء هي «المقس» بالقرب من الموقع الـذي يحتله الآن فندق الكونتننتال وحديقة الأزبكية، وحي المتاجر والملاهي – بطابعها العصرى - الواقع على يسار خط يمتد من ميدان المحطة «باب الحديد» إلى باب اللوق عبر الأزبكية، كان أرضاً عامرة بالبساتين و الحدائق في أوائل القرن التاسع عشر تغمرها مياه النيل في كل صيف. وفي القرن الثامن عشىر كانت الاض التي تحتلها حديقة الأزبكية مكانأ لبحيرة متسعة (وقـد تقلص حجم هذه الحـديقة عـلى أثر 'تخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم انحسر ماء البحيرة فت أرضها بحيث استطاع نـابوليـون أن يستعرض نها جيشه. أما ميدان باب اللوق – كما نعرفه اليوم – بسوقه ومحطة الضاحية حلوان - فقد كان في القرون الوسطى مرفأ القاهرة - بابها من ناحية النهـر، فلما بدل النيل مجراه اختفي «المقس» وحل محله بولاق، وبرز من النهر بجزيرته «الجزيرة الوسطى الآن»، ثم اندمج حى بولاق فى بقية أحياء السكنى وضاع بينها - كما ضاعت شلزى فى لندن، ولكنه كان حتى أيام نابوليون الباب النهرى للقاهرة، وكان الذين يصلون بالسفن إليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة أكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة.

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب، بل جرى عليه عدوان الأسمنت المسلح، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الأشجار.

وكان يشق قلب القاهرة إلى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضان تتدفق إليه من مصب اندثر مكانه الآن، ليسير بعد ذلك في اتجاه شارع الموسكى، وكان هذا الخليج يضفى - فعلاً لا مجازاً - على المنازل المطلة عليه عطور مدينة جديرة بأن تسمى «بندقية الشرق»، وقد حل هذا الخليج محل القناة التى انشأها الامبراطور الروماني تراجان لربط وادى النيل بخليج السويس عبر شرق الدلتا، وقد بطل استخدام

هذه القناة إلى أن جددها عمر و بن العاص، أول حاكم مسلم لمصر، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبلاد العرب. وشارع الخليج الآن – وكذلك شارع الكورنيش – هو أطول شوارع القاهرة، أنه شارع عريض لا يسلم من الدمامة، وعمدان النور فيه قميئة مصنوعة من الألومنيوم اسمه الآن شارع بورسعيد. حقًا أن أساء الشوراع اسرع من مجارى الأنهار في التبدل.

وكان النيل في مطلع القرن التاسع عشر - كالبسفور - بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام، يلقى فيها بمثيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتتلقفهم أحضان نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشق الأنثى، أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الأليمة وصار النهر عنصر وداعة ورقة في مدينة تتصف بحدة - الملامح والطبع.

وأما فندق سمير اميس يقف نوتية سمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الأجانب استئجار فلوكة، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان في أقصى

الجنوب. وأجرة نزهة لمدة ساعة هى خمسة شلنات، وما أن تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيداً إلى الوراء كل ضجة ورائحة للبترول وتنتفخ بالهواء القلاع المرقعة وتعالج بحذق فإذا بالأذن يشجيها صوت تلاطم الماء على جانبى الفلوكة، إن شكلها مخلد على صفحة النيل، تنساب أمام المبنى الحديث لمستشفى قصر العينى إلى كوبرى الجامعة، وفي أيام الأعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الأسمنت وسط النهر أقامها «مصنع كروب لإقامة الكبارى».

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الآخر، نهر دجلة، واسمه في اليونائية تيجريس بعنى النمر، فدجلة نهر مفترس عنيف يطغى على الأراضى في أسوأ موعد، أى في فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضائه، أما نهر النيل فهو أكثر انهار العالم نفعاً – نافع للرى والنقل على سواء، فإن تياره المتدافع دوماً نحو الشمال يحمل السفن إلى البحر الأبيض المتوسط، ورياحه الغالبة عليه تهب من ناحية هذا البحر في الشمال فهي تسهل على هذه

السفن رحلة العودة دون حاجة إلى عون آخر، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة إلى مياهم أى عندما يبدأ لهيب الصيف في تقديد الحقول.

ويحب أهل القاهرة النيل لأنه عنصر الوداعة والسرقة في بيئتهم الصحراوية، وأفضل المساكن ما كان مطلاً عليه، وبعد أن احترق فندق شبرد في مكانه القديم بجوار الأزبكية، أقيم له مبنى حديث يطل إلى الغرب على النيل هو وفندق سمير اميس وفندق هيلتون. وينشق النيل إلى فرعين إذا التقى بالجزيرة الوسطى، أما فرعه الغربي الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب، هى العوامات، قميئة وإن تكن عليها مسحة رومانتيكية، وأكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض.

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة. إنها سد عريض يحتجز الماء لأشهر أربعة عطشى، وهذه القناطر تريز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهى مقامة عند رأس الدلتا فملكت السيطرة على مصر السفلى والعليا، ومن ملك مقتاح الماء في بلد

صحراوى ملك البلد كله. ويرجع الفضل في اكتساب القاهرة لأهميتها إلى أنها واقعة حيث يتفرع المجرى الموحد للنيل إلى عدة رياحات تنتشر شمالا كالمروحة لتروى أرضا هي مضرب المثل في الخصب. والقاهرة ليست مدينة كبيرة فحسب، بل أنها عاصمة كبيرة أيضا في يدها مقاليد أمة بلا منازع، ولكن أهلها خليط من أجناس عديدة.

الفضالاتالث

القاهرة.. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولىدها مىدينة (١) متعددة الألوان، حتى فى القرون التى كانت فيها «دار السلام» مفصولة عن «دار الحرب» – أى البلاد النصرانية. لم تنقطع

⁽۱) كلمة مدينة هي من الكلمات التي حار اللغويون في معرفة مصدر استقاقها ويقول الاستاذ الدكتور محمود حجازى في كتابه «اللغة العربية عبر القرون» أن بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الآخر انها الميم ليست أصلا وأن الأصل هو دين أو دان والواقع أن البحث المقارن يخرج هذه الفروض إلى مرحلة الاثبات العملي فاللغات السامية تعرف الدين بمعني القانون والبيان في العربية والعبرية والارامية هو القاضي و«بيت دين» في العبرية هي محكمة كما تعرف العربية «الدائن» و«المدين» لصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعني أساسا القانون وما يتعلق به عد

أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر، من بينها شتات الصليبيين (سنة ١١٦٣). هذه هي حال لم تتبدل لمدينة لا تكف عن التبدل. طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيها بعد حكام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (وما كـان أكثر ثوراتهم على الجلابة تجار الرقيق، وكان هؤلاء في وجلهم يجعلون بيبوتهم أشبمه شيء بالحصون ذات الأبسواب المنيعة). وإلى جانب أولئك جميعًا تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش، وأكثر من هؤلاء عددًا وتدفقًا حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنبات الوادي تجرى في عروقهم آثار دماء فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة. وهكذا استقر من قديم طابع القاهرة المميز لها - طابع تعدد الألوان كما كان يبدو في معاهدها العلمية

⁻ من ضوابط والتزامات. أما الصيف ذات الميم فظهرت في الارامية بمعنى وحدة قضائية، فالمدينة هي المركز الذي التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعًا وحدة قضائية. وعندما انتقلت الكلمة إلى العربية وأطلقها الرسول على يثرب كان هذا فيها يبدو أول استخدام للكلمة في العربية.

وفي خاناتها التي تستقبل التجار من كل الأنحاء (ويحق لنا أن لا نعتمد على صيغة التعميم – وان كانت جديسة بالملاحظة – التي أوردتها ناشرة كتاب «دليل المسافر» سنة ١٨٩٦ عن دار موراى للنشر في وصف أهل القاهرة إذ جاء فيه أن ابن البلد القاهرى أسرع وأذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهو بصفة عامة يتمين بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة للصفرة والفم الواسع والشفتين الغليظتين كاملتى الخلقة والأنف البدين العريض والساقين الضخمتين كما تلحظ العين أنه صلب متين البنيان).

وحين فتح نابوليون أبواب مصر للأوروبيين أصبح تناقض ألوان القاهرة أشد إثارة للانتباه والعجب فقد انضم الغرب العصرى على الشرق التليدى، وإن كانت الاضافة الجديدة لا تمشل أفضل الغربيين أو من ذوى الاستقامة والأمانة منهم، فقد توافدت على مصر في القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاربين من الفقر في بلاد جنوب أوروبا، وأصبح عدد هؤلاء الأوربيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الألوف، وانضم إليهم جواب

الأرض في الليفانتين نسبهم المصريون المضيافون إلى الشام وهي كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتد حتى تشمل سوريا ولبنان. وازدهرت أحوال هؤلاء الأجانب في مصر - اللهم من حيث الصحة كأن الطبيعة تغدق عليهم بيد وتعاقبهم بيد، وإن سحنتهم لا تسلم من أن يغشاها شحوب رمادى أقل رواء من سمرة من يقيمون بين ظهرانيهم، ولكن رصيدهم في البنوك كان يتمتع دائلًا بأطيب صحة.

وليس اسم العاصمة في اللغة الدارجة هو القاهرة، بل مصر، وهو بالعربية يطلق على القطر كله. ومنذ ثورة مصر، وهو بالعربية يطلق على القطر كله. ومنذ ثورة السياسة المتبعة، فانحسرت موجات الأجانب الوافدين، أزاحتها قوانين جديدة وإجراءات المصادرة والتأميم وتغير المناخ السياسي، وما جذب أيضًا هؤلاء الأجانب إلى العودة إلى مواطنهم الأصلية هو ما أصبح يعمها من رخاء. وأمست القاهرة أقل وضاحة وأناقة. وكان الشعب في أواخر عهد فاروق قد سقط في وهدة فقر زاد من وطأته أن لا نجاة منه، وحريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة

١٩٥٢ (وقد قامت محطة بنزين بين شارعى عدلى وثروت مكان نادى «التيرف» الانجليزى) لم يكن احتجاجا على الفقر فحسب بل كان احتجاجًا أيضًا على الترف الباذخ وسط هذا الفقر، ففى تلك الأيام الكئيبة كان شارع فؤاد الأول وشارع سليمان باشا (٢٦ يبوليو وطلعت حرب الآن) ترتادهما أميرات جميلات لشراء كل ما يبروق لهن من المتاجر الفاخرة، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقع وأنواع الجبن الأجنبى ترد لها بالطائرة من باريس، بينها عاش أفراد الشعب على دخل لا يزيد عن قروش قليلة. لم يعد في القاهرة الجديدة قمم للأناقة، فالقصد هو تحقيق الاستواء، ولا قمم تشمخ فيها الأناقة ولا وهاد يعشعش فيه الفقر..

وإذا كان هدف الحكومة هو الوصول إلى مجتمع متجانس فإن العين لا تخطئ أن تلحظ تباين الأنماط بين أهل القاهرة، فالمدينة في ذاتها - بتعدد أحيائها وأحوالها - تعكس اختلاف الأجناس والألوان والعادات التي يتألف منها المجتمع القاهري.

الفص*ت الازابع* القاهرة.. الطابع البلدى

بالقاهرة ثلاث صحف يومية - الأهرام (١) والأخبار والجمهورية - تتنافس فيها بينها ولكنها لا تتشاجر ورسامو الكاريكاتور فيها إذا تمثلوا القاهرى القح جعلوه عادة رجلا نحيلا قصيرًا مخلوع العذار، ذرب اللسان، قد يلبس نظارة، ويخب في جلباب فضفاض من عمامة مشوشة - أو طاقية قطنية بيضاء، فالطربوش عمامة مشوشة - أو طاقية قطنية بيضاء، فالطربوش

 ⁽١) جريدة الأهرام هي أقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تقلا وقد
هاجرا من لبنان في سنة ١٨٧٥. وقد صدر قانون في سنة ١٩٦٠ ألغي الملكية
الخاصة للصحف.

الأحمر - وكان قد استحدثه الأتراك اقتباسًا من شمال أفريقية - قد اختفى لاعتباره رمزًا للتخلف، فلا يتسبث به الآن إلا السياح الأجانب وخدم المطاعم من أهل النوبة، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزى الذى انتقل إليه الأتراك فيها بعد «البيريم» التى فرضها أتاتورك على شعبه، وهى غطاء من القماش للرأس ينتهى برفرف أمامى، وتختص به الطبقة العاملة فى أوربا، ينتهى برفرف أمامى، وتختص به الطبقة العاملة فى أوربا، لم تأخذ بها القاهرة تقليدًا للأتراك، فأغلب رجال العاصمة، وكل نسائها بصفة عامة يسيرون برءوس عارية.

والصفة التى تطلق على القاهرى كما يتخيله رسامو كاريكاتور كما تبطلق على الشوارع الخلفية هى صفة «البلدى» وهى فى اللغة نسبة إلى «بلد» وكلمة بلدى تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الأحياء التى تعيش فيها هذه التقاليد. والمصرى بجلابيته المخططة تعيش فيها هذه التقاليد. والمصرى بجلابيته المخططة وصوته الأجش واهتياجه السريع وفضفضته فى التعبير عن نفسه بالصوت والإشارة، قد يبدو فى نظر السائح

الأجنبى الهياب شخصًا متنافرًا مع عاصمة تتراكم عليها المدنية الحديثة، بل قد يبدو شخصًا يشير التوجس، أما الذين يكلفون أنفسهم عناء مقابلته «وهو سهل المنال فى دكانه الصغيرة أو فى مقهاه المألوفة» يجدون ابن البلد هذا حملح الأرض – شخصًا يتصف بالتواضع والصراحة وحب الفكاهة والمساواة بين الناس، فإن كان شيخًا فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت الكريم بضيوف. إن أساس نمط معيشتهم قد رسمخ فى أقدم أحياء القاهرة حيث تراكم الزمن طبقة فوق طبقة، وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو فوق أكوام النفايات.

والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة وأشدهم دقة هو إدوارد لين صاحب الأثر المعروف «العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين» وصفوها بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى لتبدو كأنها غير مأهولة، ففي سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد، ما يترتب على غو السكان من اختزال إلى أصغر فأصغر

للبيوت العربية الفسيحة بأفنيتها الداخلية الرطيبة، مما أدى إلى تزاحم المساكن واختفاء العناية بها. وحين نشر لين بول وصف للقاهرة بعد سبعين سنة من التاريخ السابق كان لا يزال في الاستطاعة التحدث بإفاضة عن الأحياء القديمة على النحو التالى:

«بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك في هذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور، هنا تحس أن المعمار المصرى قد وفق أبدع توفيق في الوفاء باحتياجات العيش تحت سهاء الشرق، فإنه جعل الشوارع ضيقة يسقط عليها ظل المشربيات البارزة لأن الشمس تصب شواظها، فلو كانت الشوارع فسيحة كها هو الحال في مدن أوربا لأصبحت لا تطاق. وإن جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مع إحاطتها بأفنية خلاء مزروعة بساتين وحدائق، فحين لا هواء تصير حرارة الحجرات في الصيف غير محتملة، وفن المعمار المصرى كان يقتضيه أن يبني لك بيتًا لا تبطل منه المعمار المصرى كان يقتضيه أن يبني لك بيتًا لا تبطل منه على جارك من خلال نوافذه ولا يطل هو عليك من

خلال نوافذك، فكان الأسلوب البديهى لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلى عالى الأسوار. وستر النوافذ بمشربيات كأنها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأتى للمار الغريب أن يتبينه. وهذه المشربيات – أو قل هذه الستائر الخشبية – وكذلك هذه الأفنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضى بحجاب النساء».

وما بقى الآن من بيبوت من هذا القبيل يعد من معروضات المتاحف – مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون، تولى ضابط بريطانى الاحتفاظ بها بطابع القرن السابع عشر وخلع اسمه على ما يعرف اليوم به «متحف جاير أندرسون». وفى القاهرة القديمة بيتان بديعان من الطراز المملوكى: بيت جمال الدين الذهبى وبيت الشيخ السحيمى، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة الحديثة السحيمى، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة الحديثة السحيمى، النساء قد سقط لنومه فى حياة المصريين اليوم. ويرجع بعض الفضل فى هذا التحول إلى .

نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الأزهر الذي توفى في السنة السابقة لنشر الكتاب الذي نقلت عنه. وكان من نتيجة شيوع هذه الأفكار، مع تفسير جديد للدين الإسلامي يتلاءم مع القرن العشرين أن أصبح الآف من النساء يعملن مع الرجال جنبًا إلى جنب لا في دور العلم فحسب بل في المسانع والمكاتب الحكومية، وهناك في الأزهر اليوم فتيات يدرسن علوم الشريعة.

وساير نزعة التجديد في الفكر الإسلامي نمو مطرد خلال قرن لنظام علماني للتعليم، في قمته جامعتان في القاهرة، تقوم بجانبها أيضًا جامعة أمريكية. وأغلب الشباب من الكتاب والمفكرين لهم نزعة علمانية، وبعضهم يولى ظهره للدين.

دع عنك هذا التحول الفكرى، فإن تزاحم البشر في القاهرة يجعل الفصل سين الجنسين مستحيلًا، ولم يعرف السريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن سافرات يساعدن رجالهن في العمل بالحقول. إن نظام

الحجاب كان شرفًا مقصورًا على المدن. وكل مبالغة تقصر عن وصف ازدحام الأجساد في القاهرة - أكبر مدن أفريقية - لا لأن أهلها يتكاثر نسلهم جيًلا بعد جيل فحسب، بل لأنها كالعهد بكل العواصم عثابة الإسفنجة، تتص مئات الألوف من المهاجرين من أبناء الريف، وترتب على ذلك أن كل قطار قادم من الشمال أو الجنوب يصب في القاهرة مزيدًا من السكان. كان عدد هؤلاء السكان سنة ١٨٨٨ هو ٣٧٤,٨٣٨، وتضاعف هذا العدد عشر مرات في سنة ١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين حين تمضى سنة على نشر هذا الكتاب.

والقاهرة القديمة. أى هذه الرقعة التى لا يتجاوزها صوت المؤذن فى مساجد حى القلعة، لم تعد المركز الذى يتكشف عنده هذا النمط التقليدى لحياة أولاد البلا، فهذه شبرا كانت قرية انشأ فيها محمد على قصرًا صيفيًا لمه، وكانت الكتب المعدة للسائحين إلى سنة ١٨٩٦ توصيهم بشبرا إذا أرادوا الركوب فى الأمسيات للتنزه فى الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه. أما اليوم فإذا أردت

أن تشاهد الريف فعليك أن تمضى إلى جهة أخرى: غربًا إلى الأهرامات أو جنوبًا إلى حلوان، لأن شبرا ذاتها أصبحت أشد زحامًا من إيست هام وهارلم أشد أحياء لندن ونيو يورك زحامًا، واحتل نظام المعيشة البلدية مئات من شوارعها. وإذا كانت شبرا لم تعد تصلح لمن يريد التنزه في الريف فإنها مع ذلك تستحق الزيارة بسبب أن فيها كنيسة «سانت تريزا» وهي إحدى المزارات العجيبة الموجودة في العالم، أخذ في إنشائها في العقد الثاني من هذا القرن طائفة من الكارميليت تجمع بين الانجليز والأيرلنديين، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب إليه جموعًا غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، والكنيسة القائمة اليوم هي مزار لـلأمهات المصـريات، يـدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجي يضم رسها للقديسة وجدران مدخل الكنيسة منقوش عليها سأبق في مصر.

و«العباسية» حتى كذلك من الأحياء السكنية التى اندلقت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت على

الأراضي البراح الممتدة إلى هليـوبوليس والمـطار فقصر حبيب سكاكيني، وهو أعجوبة بطرازه القوطي وبأعمدته عملى هيئة فتيات من ذوات الأجسام البضة وبأطره الجدرانية المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحرفين الأولين لاسم صاحبه الليفانتي ولقبه، كان في الأصل معدًا لإقامة خلويــة، فأصبــح الآن تلتقى عنده دروب عــديدة لحي سكاني مردحم إلى درجة الاختناق. وحتى في هليـوبوليس «مصـر الجديـدة» تمتلئ الشـوارع الخلفيـة عنازل على غرار منازل الأحياء السكنية في القاهرة القديمة، ولكنها تستوعب أجهزة الترانزستور والغسالات الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفا منزوعة من نفياية خيوط الغزل أو صفيح السباك، وتلعلع أجهزة الراديو من المقاهي، ويسير الناس في الشوارع مرتدين البيجامات وتعرقل ٤٠ ألف سيارة حركة المرور، ويندفع رجال الشرطة بزيهم الأسود شتاء الأبيض صيفا في نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالى البال أن ثورة توشك أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول هذا كله إلى تكشير بالأنياب سرعان ما ينقلب إلى تبادل

السلامات. وهنا طرح كبير للأطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخلاط متباينة ولهم ضجة عالية، إنهم لا يزالون في رهبة من آبائهم، كثير منهم يميل إلى الشر وبعضهم إلى الانحراف، ولهؤلاء ملاجئ إصلاحية يدخلونها إن أمكن القبض عليهم فهم خفاف في الجرى والقفز، ومع ذلك فلا تدل الإحصاءات على تفشى هذا النوع من الإجرام المعدوم الهدف الذي هو في بعض الأحيان طابع المجتمعات الأكثر رخاء.

والأحياء البلدية في القاهرة جديرة بالزيارة في جولة ستكشافية فهي بقابا لا تنزال حية لمسرح ألف ليلة وليلة، وإذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصي العظيم عند العرب قد وقع في بغداد فإن المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة، ولا ينزال كثير من سمات الحياة كما تبدو في ألف ليلة وليلة باقية إلى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الأحياء البلدية هو أن تسعى أليها مشيًا على القدمين، وستكون آمنًا مطمئنًا، ولكنك قد

تتعرض لاشتباكات جدلية إذا أبرزت آلة تصوير لا تسرحم، فإنها قد تثير الغضب والاحتجاج من جراء الشعور بأنك تخليت عن دور الضيف - وللضيف مكانته المقدسة في الشرق - لتقوم بدور «البصاص» الذي يتصيد عجائب القارات كها يتصيد هاوى الفراشات أنسواعها العجيبة وإن هذه الأمثلة التي تجمعها لعجائب السلوك الإنساني ستعرضها على أصدقائك في بيتك حين تعود إليه في جو من التندر والسخرية، والسبب أن هؤلاء الناس أصحاب القلوب الطيبة قـد بـدأوا يعيشـون في مـأساة انتبـاههم إلى أنهم متخلفون، وأن اعتمـاد كيانهم عملى الدروب الضيقة والمعيشة والعمل نشرًا تحت قبة السباء قد يعد من الوصمات. والطبقة الوسطي في المجتمع هي التي غرزت في أذهانهم هذا الخاطر أكثر مما غرزه الاجانب. وفي الحق أن خير نتاج مصـر هو الـذي ينبع من هذه الدروب الضيقة، فهنا حيوية هيهات أن يكون لها قرين، وحماس وتبطلع، جديران بالإعجاب، لمباهج الحياة الصغيرة الهامة تنال عفوًا.

ولكن ليس كل أفراد الطبقة الـوسطى ينـظرون إلى

هذا الطراز من المعيشة نظرة ازدراء، فالروائى نجيب محفوظ قد سجل بعناية قصوى مشاهدها فى روايته «بين القصرين» وهى ثلاثية تتتبع الأجيال وتعكس حياة أولاد البلد فى أدق تفاصيلها، وكذلك يوسف شاهين وهو من ألمع المخرجين فى ميدان السينا بمصر قد صنع فيلًا عن شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتدى الجلابية وجعل حوادث الفيلم تدور فى محطة باب الحديد بضجتها العالية وحواشيها الرثة الحظ.

الفضل مخت كمس

القاهرة.. الطابع الإفرنجي

وأغلب أولاد البلد في القاهرة يقبلون على شراء البنطلون إذا قدروا على دفع ثمنه، يقتبسونه ويقتبسون معه غط الحياة الإفرنجية، وكلمة «أفرنجي» هي المقابلة لكلمة «بلدي». إنها النطق العربي لكلمة «فرانك» وهي اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا في القرن الخامس وأطلق في الشرق على الأوربيين عامة، فهي تعني الآن في موضوعنا كل ما هو ليس بمصرى، أو كل ما هو أجنبي، وكان التفرنج يعني في البدء - علاوة على لبس وكان التفرنج يعني في البدء - علاوة على لبس وحفلات الرقص الأوروبي على أنغام الموسيقي وحفلات الرقعيل واللوحات الزيتية في حجر الاستقبال

بدلاً من لافتات الخط العربي وأثاث من طراز لويس الخامس عشر - يصنعه للزبون المتفرنج نجار بلدى ا - ويعنى فوق ذلك أيضًا إيداع النقسود في بنك لا في شكمجية كان هذا في البدء، أما الآن فقد أصبحت جميع هذه الأشياء من صميم الحياة في القاهرة بحيث انقطع الإحساس بأنها من اختصاص الإفرنج.

والمتفرنج القاهرى (وهو مسلم فى تسع حالات من حالات عشر) ينبغى التفريق بينه وبين «الخواجة»، وهذا لقب صيغ فى الأصل ليطلق على كل من هو مسيحى أجنبى وإن شمل أحيانًا القبطى: المصرى المسيحى أيضًا. ويعيش المتفرنج القاهرى والخواجة جنبًا إلى جنب فى وثام أشد من وثام المسيحيين والمسلمين فى قبرص، إلا أن لكل منها حسابًا مختلفا للآخر. قد يكون نمط حياتها متشابهًا، ولكن «الخواجة» الذى كان من قبل يتميز بسلطان اكتسبه إبان هيمنة الغرب المسيحى على أقدار العرب، قد خف الآن فى الميزان. وكلمة «خواجة» أقدار العرب، قد خف الآن فى الميزان. وكلمة «خواجة» فاتمارا العرب، قد خف الآن فى الميزان. وكلمة «خواجة»

مصبر تبطن معنى الازدراء، لذلك يفضل الأجنبى أن يكون النداء عليه «يا سيد» بدلاً من «يا خواجة» فإن كلمة سيد في مصر الآن تعمل عمل كلمة «مستر» في إنجلترا.

والطبقة الوسطى هي العنصر الحاكم عملي القاهرة الحديثة، فمن صفوفها خرج أولئك الذين يخططون العاصمة كما هي اليوم، ويرسمون لها أذواقها، ويقودون ثـورتها. وقـد انبثقت هذه الـطبقة الـوسطى حـديثا من الجماهير البلدية، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولى من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتى لاك الأرض، وكان كسر احتكار الأسرة الحاكمة للملكية العقارية هو منشأ الطبقة البورجوازية، والفروق بين الطبقات المائعة، والطبقة الوسطى آخذة في النمو، وقد نحدس حجمها من نتائج احصاءين، فبينها لا ينزيد عدد أصحاب السيارات في القاهرة عن ٧٠ ألفًا نجد ما لا يقل عر ٦٠٠ ألف من سكانها بين مـوظف حكومي أو مستخـدم، وفئة المستخدمين تشمل أناسًا قـد وضعوا قـدمًا - عـلى الأقل - على أول سلم الطبقة الوسطى.

وتعيش البطبقة البوسطي مبوزعة في كبل الأحياء السكنية، ففي شوارع يغلب عليها الطابع البلدي بضجته ودكاكينه ولعب أطفاله بالكرة في الـطرقـات، تتعـالي عمارات تسكنها أسر متفرنجة، وإن بقى لها أقارب في القرية أو في المدينة. ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابع الإفرنجي. والزمالك هي أكثرها عمرانا وأشدها افتقارًا إلى السمة الذاتية وهي تمتد مسافة ميل ونصف في شمال «الجريرة»، هنا تتبادل أشجار البوجانفيليا والزاكرندا والبوانسيتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات وأعيان القاهرة. أما الطرف الجنوبي من «الجزيرة»، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادي الجزيرة، وكان هـذا النادي في وقت مــا وقفا عــلي الموظفين الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب, واليوم ورثه المصريون عنهم..

أما الروضة - الجزيرة الجنوبية - فهي أقل طولاً من «الجزيرة» بمقدار ميل ونصف وأقل منها أيضًا تعاليا، فإن عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى إليها إلا لابسو

البنطلون، أما لابسو الجلاليب فهم الخدم والباعة، على حين أن الشاطئ الغربي للروضة تتسم مساكنه بالترف.

وفي أحد القصور المطلة على النهـر كان يقيم بـاشا مصرى متزوج من سيدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطب الفرعوني القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفي إحدى المناسبات عارضها صديق ثرى قتله السام يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شرًّا فتحداها أن تظهر قدراتها، فحبست عنكبوتًا سامًا في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضا من شعره وأظافره. ولم يحدث شيء ثم اضطرت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينها هي هناك وصلتها برقية تفيد أن صديقها هذا في المستشفى على وشك الموت - فيها يبدو- بالسرطان فاتصلت من زيوريخ بالتليفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أن العنكبوت الذي كان على وشك الموت جوعًا داخــل البرطمان قد فرض طريقًا عميقًا داخل التمثال، ربما

سعيًا وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملًا) فيا أن تمت العملية حتى شفى صديقها الضحية في الحال.

والطبقة الوسطى غالبة أيضًا على الشاطئ الغربى للنيل عند محافظة الجيزة، تحيط هناك بإحدى مؤسساتها - وهى الجامعة - وكذلك غالبة هى على مصر الجديدة والمعادى، وكانت الضاحية الأخيرة خالصة لسكنى الأوروبيين، أما اليوم فإن العنصر المصرى شائع فيها..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى، هم اليوم على غير ما هم عليه، وأنت إذا أعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من أفرادها في القاهرة يوافقك على رأيك، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين أفرادها لا يخلو على أية حال من تحيز متفضل، فالذى يقول إنه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول إنه متحمس للزنوج. والطبقة الوسطى في

القاهرة – كالشأن بها في كل بلد ~ هي منبت أفراد للأمة وهذا هو مبرر وجودها. وأشخاص رواية «الرجـل الذي فقد ظله» - وتجرى حوادثها في حي قاهري - يصفهم بالسخرية والرثاء معا، ولكنهم شهود على القرن العشرين في كل مكان، وليهنأ القارئ الأجنبي إذا لم يجد نفسه صورة أخرى من هذا الانتهازي المجرد من البطولة الذي جعله المؤلف بطل روايته. وهذه الـرواية – ومعها كتابات أخرى عديدة - تعبر عن عقائد طبقة خلعت عنها قيم الماضي وأزياءه. وقد وصف فتحي غانم حادثا بقى في ذاكرته منـذ طفولتـه كحادث هـام، حين تحدث عن أبيه القـروى الذي كـان أول فرد في الأسـرة خلع الجلابية، فإن أباه هذا ذهب إلى طبيب ليمحو بالكي آثار وشم على يده، وكان الصبى يعجب بهذا الوشم وأحزنه أن تختفي عن يـد أبيه رسم الثعـابين والتـروس، فلها كـ بر الصبي أدرك أن هذا الكي في غــير ضرورة هــو رمز مأسوى لطبقة نبذت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعة لهم بعد..

وسواء كان هذا التحول صوابًا أو غير صواب فإن تطلعات الطبقة الوسطى - على كل حال - هى التي تحدد للعاصمة رسمها، فذوق هذه الطبقة هو الفيصل: أى المبانى يهدم وأيها يبقى وأيها يقام. وتدشين انتصار الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل في إنشاء كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلو مترًا فقد ظل هذا المشروع موضع بحث طال سنين عديدة، ثم إذا به يتم تنفيذه خلال أسابيع قليلة، والآن يتمتع المصريون من جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذي يعد حقًّا رئة جديدة للعاصمة..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخم، حديث، مريح، فها هو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له إشعاع صورة الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون أجهزة التليفزيون أو لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة. وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهية وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و١٦ دقيقة

وكذلك برج القاهرة، إنه خارج من أحضان الطبقة

الوسطى، وقد وصفته إحدى النشرات الحكومية بأنه من روائع المعمار الإسلامى الحديث، ولكنه يشبه سلة مهملات الورق، ضخمة متعالية، وفي سطحه مطعم دوار يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطىء جدًّا بحيث أن الذين يتناولون فيه - وسط جو من المرح - وجبة كاملة (حساء - لحم - فاكهة) إذا رفعوا أبصارهم عن طبق «السكالوب على طريقة فيينا» رأوا أن المنظر قد تبدل كل التبدل، أصبحت الأهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك.

الفصر المسادس القاهرة.. والأرستقراطية

لم يكن للطبقة الوسطى قبل أعوام أية سطوة ولم يحظوا بالسكنى في المباني والشقق الفخمة إلا قليلاً، فقد كانت موجودة وقتذاك أرستقراطية يحسب لها كل حساب فبيدها زمام الأمور،ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر إلى الخارج معظم الأرستقراطيين والإقطاعيين، وفضل من كان منهم من أصل تركى، دون أن يكون منتميًا إلى العائلة العثمانية المخلوعة، الإقامة في تركيا – واختار آخرون سويسرا أو فرنسا أو – كما فعل الملك السابق فاروق – مونت كارلو. وفضل البعض البقاء بعيدًا عن الأضواء ما استطاعوا بمعاش ضئيل (وذلك في حالة الأمراء

والأميرات السابقين) أو بما بقى لديهم بعد التأميم والمصادرة. واستمر البعض في شغل القصور الجميلة التي تحوى أثاثاتهم يستعملونها كيف شاءوا بدخلهم الضئيل. وأبدعت سيدة مجتمع سابقة قطعًا فنية رائعة من تجميع قطع الزجاج الفاطمي أومن قطع أشغال العظم القبطية التي يمكن اقتناؤها من محال بيع القطع الأثرية والأنتيكات، وشتان بين ما تبدعه وبين ما يصنع بالجملة لأفواج السياح، ويتحول نتاج ما تصنعه إلى إحدى الجمعيات الخيرية القبطية. ويعزف أمير سابق أنغام شوبان في الاستقبالات المحدودة من أجل البر أيضًا. ولا يتصور كثير من هؤلاء الأرستقراطيين الذين بقوا كيف يتسركون مصر، فهم مخلصون لها بحماس يعسر دائمًا إدراكه ممن احتلوا أماكنهم..

ويسكن في جاردن سيتى أثرياء الأقباط، وكثير منهم اقتنى الكتب الانجليزية وتخلق بالمعيشة الإنجليزية، ويأخذك العجب وقليل من الحزن أيضًا وأنت تزورهم فى غرف مكاتبهم. التي رصت جدرانها بالكتب عندما

يسألونك بذهن شارد عن اسم كان مل الأفواه في عالم الأدب أو عن «زيد» أو «عمرو» الذي كان يشغل مركز نائب دولة أو سفير ثم بات في هامش الحياة.

وقد نبذ الأقباط الأسهاء الإنجلية واختفت أسهاء مثل وليم وجفرى وسسل، وحل محلها أسهاء أكثر فطنة مثل «توفيق» أو حتى «جمال» وهي مدلولات غير محددة تنفع للمسلمين والأقباط على السواء.

الفضل الستابع

القاهرة.. الطابع النوبي

والنوبيون طبقة أخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع في القاهرة مع أن آثار بلادهم هي محل اهتمام السياح، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين. وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكني حي قد لا تلحظه عين القاطن العابر في فندق هيلتون أو شبرد، وأنا نفسي لم أنتبه لوجود هذا الحي العجيب إلا حين كنت أقيم في بنسيون في الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكة

وثغاء غنم، فلما خرجت إلى الشرفة وأطللت منها رأيت قرية متناثرة على الأسطح المستوية للمبانى المجاورة، إذ هي تزيد في ارتفاعها عن ستة طوابق، وتتكاثر فيها. تقليداً للفن الحديث زخارف من المعدن والجص أي أن المنطقة تقابل شارع اكسفورد في لنــدن. وجدت من تحتى بط يبطبط، وأغناماً تلوك حزماً من البرسيم، ونساء في ملابس سود تمد أيديهن إلى أقفاص الدواجن لتخسر ج بفطور عيالهن (والبيض في القاهرة بيض بداري الدجاج فيلزمك أربع منها لكي تصنع لك عجة). في كل قريـة من هذه القرى المتناثرة على الأسطح يعيش البوابون – وهم في مساكن القاهرة من علاماتها المتميزة - فإنك لابد واجد عند مدخل كل عمارة بوابا - واحدا على الأقل -جالسا على دكة، يلاحق بنظره الداخلين والخارجين، وفي أغلب الاحيان يكون مع رفاق له، والنوبيون يجبون المؤانسة. إنهم يأتون من هذا الوادى الضيق ما بين أسوان وشمال السودان، وقراهم تمتـد طولاً، النيـل هو شارعهم الرئيسي، بيوتهم فسيحة، نظيفة، طليقة الهواء، جدرانها مزينة برسوم من صنع أيديهم، ما من باب عليه قفل، فليس هناك سرقة، وليس هناك زنى، ويعترف القاهريون بأمانة النوبيين ويسرونها سبب استخدامهم بوابين. ومع كل هذا فقد احتجت الحكومة السودانية لدى منتجى السينها المصريين لأنهم يظهرون الشخصيات ذوى السحنة السمراء في دور الخدم دائها ولم يظهروهم سادة مطلقاً.

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسامح. قد يحدث اشتباك بين خواجه ومسلم وبين مصرى حنطى اللون وآخر من أبناء السود، ولكن لا يكون هذا الاشتباك بسبب نفور جنس من جنس. وبعض دروب القاهرة تشبه حى هارلم فى نيويورك، ولكن بدون حزازاته، وإن كان السودانيون يتجمعون فى مقاه خاصة بهم فليس مرجع ذلك أنهم معزولون عن المجتمع، بل إلى اختيارهم هم أنفسهم لهذه المقاهى، شأن المقهى التى تجدها فى كل مدينة وقرية كبيرة فى وادى النيل فيها أبناء القاهرة المغتربون عنها.

الفضالكثامين.

القاهرة.. منازل الأموات

وفي أطراف العاصمة قطاع تقطنه الأغلبية العظمى. يقطنه الأموات. إنها مدينة أو قل ضاحية إن شئت، تمتد وتستدير مع مدينة الأحياء ما بين شوارعها المزدحمة وتلال المقطم – تلك الخرطة المقسمة درويها تقسيباً هندسيًّا تتبين لك إذا وقفت عند مسجد الجيوشي فوق القلعة من أعلى الحصن الذي قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة. إنها ليست أرض الجبائة وإن كانت القبور جزء منها، بل هي مدينة مسطحة وحشية اللون، لها هي أيضاً شوارعها، وعلى بيوتها أرقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد، ولكنه إذا دق

الباب لن يفتح له أحد، فإذا دفعه دخـل إلى مأوى كـأنه مسخ للمعتاد من مساكن الأحياء: حجرتان متجاورتان على أرضها بساط من التراب. وفي كل منها نصب مستطيل من حجر أو جص، وتحت أرض إحدى الحجرتين يرقد الذكور من أموات الاسرة، عـنزلهم الموت عن الإناث المدفونات في قبور الحجرة الأخرى. ويسجى الميت عملي لوح من الحجر، مكفناً ولكن بملا ناووس. ومتاح لك زيارة مقابر المماليك، حكام مصر خلال ستة قرون، وزيارة المسجد الذي يضم رفات سلالة محمد على، ويرجع عهده إلى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة. وأعرف فتي مصريًا ولد ونشأ في أمريكا، ذهب أخيراً إلى مقبرة أسرتـــه ليحضر دفن عمتــه، وكان لم يــألف بعد عادات بلده، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له في اهتمام خاشع انه أتى إليـه من بعد أن ألقى السلام على أخته. لم يفهم قوله أول الأمر ثم أسعفته ذاكرته وأدرك أن محدثه يعني أختا له ماتت في طفولتها قبل مولده، إنها كانت راقدة في قبر الأسرة طوال السنين وتزار هي أيضاً.

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهل منف من قبل أربعة آلاف سنة، فإن في مدينة الأموات التي وصفتها ما يكفى للرد عليهم. كان الرومان يحرقون موتاهم، والإغريق يدفنونهم خارج المدن على قمارعة المطريق، أما المدين الإسلامي فمن سنته دفن الميت في قبر لاحد لبساطته حتى إنك تستطيع بيدك أن تسويه بالأرض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع أنه توفى منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الآن في الرياض من يذكر أين هو ولا بقى من يزوره).

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الإسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات، ففى الأيام المشهورة على مدار السنة - كأيام العيد الصغير الذى ينتهى إليه شهر الصيام، وأيام العيد الكبير الذى يحتفل عنده بوصول الحج إلى مكة - تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الأموات، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج إلى نزهة، متلهفًا على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الأثواب الجديدة في العيد أو التمتع بالفسحة وشم الهواء. وكان هذا هو الشأن أيام الفراعنة بالفسحة وشم الهواء. وكان هذا هو الشأن أيام الفراعنة

فى مواسمهم أيضا، وان اختفت اثنتان من عاداتهم - الآن لا تحنيط للموتى، والدفن فى الضفة الشرقية من ... النيل حيث تشرق الشمس، أما عند الفراعنة - اللهم إلا أيام هرطقة أخناتون - فقد كان الميت يدفن - بعد تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقاً لدخل الأسرة - فى الضفة الغربية من النيل، حيث مملكة أوزيريس.

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة، وما الأهرامات والقبور الغائرة في الصخر إلا محاولات لتضليل هؤلاء اللصوص. وأهل القاهرة يعانون منهم اليوم أيضاً، شأنهم شأن أجدادهم. وهناك قوة من الحرس تجوب المقابر، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم أيضاً، قامت متاجر صغيرة تبيع الشاى والأدوات المدرسية. وبعض الغرف المبنية فوق المقابر قد اتخذها الناس مساكن لهم، ولكن بالرغم من قوة الحرس وبالرغم من الغول الذي تقول الأساطير إنه يسكن في ظلام المقابر، فإن كثيراً من الأسر تعمل المقص في أكفان موتاهم حتى فإن كثيراً من الأسر تعمل المقص في أكفان موتاهم حتى لا تبقى لها قيمة تغرى بالسرقة.

الفضل لتأسع

القاهرة.. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن أفريقية (وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها) بأنها ظلت منذ مطالع القرن التاسع عشر عاصمة قطر، أيًّا كان هو، فإنه متقارب من الدولة الحديثة. وليس من قبيل الإطراء خلعنا هذا الوصف عليها، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب. يكفى القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها النزلاء و ٦٥ مستشفى بها ١٣٠٠٣ سريراً وما يزيد عن النزلاء و ٦٥ مستشفى بها ١٣٠٠٣ سريراً وما يزيد عن المراه من شرطة المرور، ليقال إن هذا كله لا يعكس أنها عاصمة فحسب، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة،

وهى أيضاً فريدة فى أنها تمثل مجتمعاً شرقيًا فى صراع دائم مشمر مع الغرب، لا تنازعها فى ذلك مدينة استانبول (وهى مدينة لابد أن يقال عنها إنها غربية فهى مقامة فى أوروبا) فإن القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب، فقد نقل كمال أتاتورك عاصمته الجديدة إلى بلد صغير فى قلب الأناضول، ولا أحد فى مصر (اللهم إلا فى شهسر أغسطس حين تصبح الإسكندرية بمثابة العاصمة الثانية) يتبادر إلى ذهنه التخلى عن القاهرة.

وعلى مدى قرن ونصف - ما بين نابليون وجمال عبد الناصر - تولت حكم مصر سلالة أجنبية واحدة بلغ من تتابع توارثها أن أصبح يطلق عليها - تفخياً لها - كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفي التاريخ للعهد الفرعوني - اسم «الأسرة الحاكمة» ومنشئ خطوط هذه السلالة رجل مسلم من مدينة قولة في مقدونيا بشمال اليونان، وكذلك إلى مقدونيا ينتسب منشئ الإسكندرية العاصمة المتلألئة لمصر البطالسة، وبعد أن انحدر حالها

وانكمشت وأصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف، أعاد إليها محمد على - المنتسب إلى مقدونيا أيضًا - ازدهارها، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة للكه. وكان حين مجيئه إلى مصر من أتباع السلطان العثماني، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون، ولكنه قلب تبعيته إلى نظام حكم مبتدع فريد إذ أصبح يخص نابوليون بإعجابه الشديد، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الأقاليم المتخلفة في تحسطيم المماليك في مجزرة وحشية انقسم امتدادها إلى مرحلتين، الأولى تولاها نابوليون بالقرب من قرية امباية (التي اند مجت في القاهرة الكبرى اليوم وبها مسرح البالون) فقد أحاطت جنوده من حملة البنادق بالأمراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون، وفر من نجا من المعركة الى صعيد مصر والسودان، انتظارًا - هكذا ظنوا -لعودتهم إلى مناصبهم وأملاكهم يوم يرحل نابوليسون إلى باريس. ولكن محمد عـلى – وهو في بعض الاعتبـار آخر الماليك وأنجحهم - دعا بقيتهم إلى حفيل في القلعة وفتك بهم هناك. ونستطيع اليـوم أن نشهد مـوقع هـذه المدنبحة، إنه المسر الضيق المؤدى من القلعة إلى باب العرب. وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التي هام بها المصورون في القرن التاسع عشر فرسموه، وفقاً لأسطورة شائعة – وهنو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاوينا إلى الأرض. ولكن الحقيقة هي على خلاف الأسطورة، وإن كان قد نجا فبفضل مرض أقعده عن حضور الحفل. واستمر القتل أيضًا في المماليك الذين كانوا متفرقين في أرجاء مصر.. فمن هم هؤلاء المماليك؟

إنهم في الأصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم. وكما حدث في الإمبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الإمبراطور إلى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله، فإن هذا الحرس من المماليك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر. وقد جاء هؤلاء المماليك من الأطراف الشمالية الشرقية لدار الإسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس، وأحياناً بالتقى والورع، وأحياناً بالانتهازية الكلبية، ولكن محال

وصفهم بأنهم مصريون. ورأس الماليك يصبح هو السلطان، منصب قد ينتقل بالوراثة من أب الى ابن، ولكن كـان من المحبب لهم في المعتـاد أن يتبني السلطان مملوكا أثيرا عنده، وكان هذا المملوك إما يقتل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره. ويمكن القـول بأن نظام المماليك يرجع مبدأه إلى عهد صلاح الدين وهو كردى من أبناء القرن الثاني عشر، فإنه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم أشبه ما يكون بنظام الحكم الاقطاعي في الغرب، ولو أن فرق الجنس بين المماليك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادى النيل قــد جعل هؤلاء المماليك أقـل من بارونـات القرون الـوسطى في فـرنسا وانجلترا اهتمامًا بالحقوق الديمقراطية، وإن أخطأنا عمدًا فى حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها. ولما انهزمت مصر أمام الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باي آخر سلاطينها على بــاب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة المماليك قد دالت، على يـــد غــزاة لا يقلون عتـــوًّا عن التيـــودور في غـــزوهم لانجلتـرا، ولكن أعباء هـذه الإمبراطـورية التي اتسعت

فجاة ثقلت على الأتراك فرأوا من الأصلح أن تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم فبقيت هذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم إلى نهاية القرن الثامن عشر وإن بقى لموظف تركى سيادة اسمية عليها،

ومن تركة المماليك التي أورثوها للقاهرة شيئان: هذه العيون الزرق والخضر في بعض الوجـوه السمر، وهـذا الحشد من الصروح الفخمة: مدارس ومستشفيات وفوق هـذه وتلك مساجـد بقبابهـا التي تتميز بهـا مقامـة فــوق قبورهم، كأنما انتقل إليهم بالعدوى، من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضريح لائق بالرقدة الأبدية، وهكذا أضفى الرواد على عاصمة دولة انكمش عدد سكانها من ٨ إلى ٢ مليون نسمة، فالقاهرة التي انتقلت من يدهم إلى يد نابليون وإلى يد مريده المقدوني لم تكن إلا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم. ويرجع الفضل في اتساع هذه المدينة الى أسرة محمد على، وإن تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار إلا بعد انقضاء عهد الماليك.

ولم يشعر محمد على في قرارة نفسه أنه مصرى قط. ولو أن ابنه إبراهيم - هذا الجندي الصارم - كان يحس أنه قريب إلى أبناء العرب سمر الوجوه شأنه في ذلك شأن لورنس إذا راعينا واجب تبديل زمن بـزمن. وكان محمـد على يتكلم التركيـة لا العربيـة، ويعـد نفسـه عثمـانيُّــا لا مصريًّا، ولا حتى من مقدونيا. وكان له - كما للملك عبد العزيز آل سعود - وفرة من الأولاد، ولكنه كان في نفس الوقت من المعجبين بالمدنية الغربيـة الحديثـة وأراد أن يقتبس كـل تطبيقـاتها فـأنشأ الآلات البخـارية وبني الفنارات. والطابع الذي خلفه على مدينة القاهرة يستمد إشعاعه من القلعة، إذ شيد فيها قصره - قصر الجوهرة - بالقرب من باب العزب حيث تدوى صرخات أشباح المماليك اللذين ذاقوا الموت ذبحًا. وبجانب من قصر الجوهرة مسجده المقام على قبره، وهذا المسجد لا يعد في نظر عشاق العمارة الإسلامية في القاهرة من أفضل غاذجها، شأن دار الأوبرا في باريس بين مثيلاتها. وبـرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فإنه - في عاصمة مصر - يطغى على أفقها الشرقى.

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ترعة المحمودية، وبنى القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها — كالشأن في أغلب منجزاته — كانت مهتزة الدعائم، فلم يتم لها رسوخ إلا في التسعينات من القرن الماضى. وفي قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد، كما نجده قاعدًا في الصورة القلمية التي رسمها له روبرت كيرزون. قال:

«وجدنا الباشا حين لقيته شيخًا عفيًّا متين البنيان، عريض الكتفين، عريض صفحة الوجه، واسع انفتاح المنخرين، تضفى عليه نظرته الحادة الوثابة، هيئة أسد أغبر هرم. تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى إمكان مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس. وكان هذا المشروع أكبر هم يشغل بالمه حينئذ. ولكن الحادثة التى سجلت هذا اللقاء بقوة في ذاكرتي والتي دهشت لها لأنها تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن في ذاتها إلا حادثة هينة، فقد رأيت الباشا يطلب منديله فأخذ يبحث عنه فيها حوله، ثم ينقب في جيوبه، فلم فأخذ يبحث عنه فيها حوله، ثم ينقب في جيوبه، فلم

يجده. وكان أثناء بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته وحيرته بهتافات مختلفة، استجاب لها آخر الأمـر خادم سعى إليه من أقصى الحجرة وقال له «ابحث عنه في جيبك الآخر» فأجابه الباشا «فعلت فلم أجد فيه منديلي» رد عليه الخادم «إذن عد إلى البحث عنه في جيبك الأول» فلما أجابه الباشا «ليس عندي منديل» أو يكلام من هذا القبيل، كان الرد السريع الذي أتى إليه من الخادم «بل عندك منديلك» وتكرر القول والرد «لیس عندی مندیل» - «بل عندك مندیلك» وانتهی. الأمر بأن تقدم هذا الخادم إلى الباشا وأخذ ينقب في جيبي ستـرته دون أن يجـد المنديـل، فأخـذت يده تــدور حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف الشال الذي يتلفع به ولكن بــلا جدوى، حينئــذ أمسك الخادم بسيده مولاه وأماله إلى اليمين فوق الأريكة ونظر تحته لیری ما إذا كان قد قعد على مندیله، ثم عدله وأماله من جديد إلى اليسار، وظل الباشا طوال هذه المناورة العجيبة على أتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام، ثم دس الخادم ساعده إلى الكوع في أحد جيوب سرواله

الكبير المنتفخ وأخرج علبة نشوق ومسبحة وأشياء أخرى صفها على الأريكة، ولكنه لم يجد المنديل، فانتقل ساعده إلى الجيب الآخر ومده إلى عمق مهول حتى أخرج من قاع الجيب المنديل المفقود، وفي حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة إلى يبد الباشا ثم تراجع إلى الطرف القصى من الحجرة حيث كان».

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ما كان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التي اغتصبها، وكذلك ونحن نستمع إلى الهجوم عليه من المنادين بالوطنية الحديثة. قد يكون محمد على نهازًا للفرص، يمضى الى غاياته بلا رحمة، وقد تكون اصلاحاته سابقة لأوانها، ضحضاحة لأنها انبعثت من دوافع باطلة إذ كان يطمع ان يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية يقيمها لشخص – ولكن رجلًا له مثل هذا المسلك السمح وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره، ومثل هذه الخلال لا تزال إلى اليوم في جميع البلاد العربية هي التي تمهد

لحكامها طريق النجاح.

لم يرث أحد من ابنائه عبقريته وانتماءه للشرق وقلد وجد اسمه اسوا تخليد له في القاهرة «فإن اسماعيل هـو الذى أطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسي، فجاء أشد شوراع العاصمة دمامة واجتراء فإنه هتك احشاء حي من أجمل أحياء القاهرة، وهـدم قصورًا وأزال حـدائق وقوض جـانبًا من مسجـد عتيق لا لشيء إلا لكي يسلم للشارع تمام امتداده على خط مستقيم، وهذا حرص سخيف عـديم الذوق» هكـذا قال ستانلي لين بول. ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من إسماعيل هـذه البـواكي التي تجعله شبيهًـا بشـارع ريفولي في باريس. ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل أصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكي، فاختفى أكثرها واصبح جريحًا متناثرًا، وأصبح - باسمه الجديد شارع القلعة - من أقبح الشوارع في مدينة جميلة.

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعًا لخضوعهم لحكم سلالة

محمد على. كان مطلب ثأرهم عند قصورهم، فقصر عابدين - وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه - يطل على ميدان كبير. هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مثير مع الضابط عرابي - مثيل عبدالناصر في الثمانينات من القرن الماضي. أصبح الآن يسمى بميـدان الجمهـوريــة وينقلب إلى سـرادق مكبب مهول تنصت فيه الجماهير الغفيسرة إلى الخطب احتفالا بعيد الثورة في شهر يوليو من كل عـام، أما القصـر ذاته فقسم منه تشغله إحدى السوزارات «وزارة الاصلاح النزراعي» وقسم آخر يحتله ناد للشباب، وقسم أفرد ليكون متحفاً. وقد بيع أغلب أثاثه الفاخر، ومــا بقى منه ينم عن ذوق اسماعيل الذي كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا، ولا تزال معلقة على الجدران لموحات زيتية تمثل زوجات إسماعيل مرتديات ملابس عقيلات طبقة السادة في أكسفورد، وبقيت الأدوية في الحمام الملكي كبها تركها فاروق عنــد تنازله عن العرش، وبقى الميزان كذلك، ذكرى حزينة لبدن يود أن يذوى كها ذوت سمعة صاحبه. أما القصر

الذى احتفل فيه اسماعيل بالامبراطورة الفرنسية ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا فى المدينة لأسرة مسيحية من الصعيد، هى أسرة لطف الله، وبقى القصر بقدر ما كما كان، وأن أقيمت على أرضه شاليهات مترفة.

وقصر الامير محمد على (ولى العهد الى أن رزق بولد من زوجته الثانية ناريمان صادق قبــل خلعه بقليــل) قائم الى اليـوم بجزيـرة الروضـة، من وراء أسواره العـريضة دروب يحفها نبات الصبار أو تظللها أشجار البانيان، لا ينساها من يجـوس خلالهـا، تصلح أن تكون مسـرحا لفيلم سيريالي أن صنعت هذه الافلام في مصر. وبالقصــر مجموعة ضخمة من صور فوتوغرافية لملوك الدول ورؤسائها عليها توقيع أصحابها، وفقا للمراسم. وينقلب طبابع القصر المستلهم من ذوق دمشق الى طابع عهد ادوارد في إنجلترا إذا انتقلنا إلى الحمــام ورأينا من خــزفه زخارف على هيئة أزهار. أقام الأمير على أرض قصره متحفه وهو خير مكان تستعرض فيه السجاد الشرقي، ولوحات الملوك ورؤساء الدول، والمصاحف المزخرفة، وأشياء أخرى ثمينة من جمع أمير شرقى مطلق السلطان.

وهذه الفقرة التي كتبتها لها صدقها، ولكن السرعة التي يتصف بها تغيير الاحوال في الشرق الجديد ما لبثت أن جعلت كلامي محمولا على الماضي، فقد علقت على باب القصر لافتة بأنوار النيون تعلن أنه هو أيضا أصبح فندقا باسم «عمر الخيام المنيل» وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد في الإمكان صنع فيلم سيريالي كالذي تحدثت عنه فإن نبات الصبار قد اذبله غشيان السياح لدروبه وان كنا - أنا وانت - لم نهضم بعد نصيبنا من متعته. وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة.

ولن تجد في القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه، وهذا حال يدعو للأسف ولو أنه مفهوم. فإذا كان هذا التراث يعد في نظر الانجليز في بلادهم منحدرا عن عصر الملكة فيكتوريا عصر القوة السيادة، فإنه في نظر المصريين ينحدر عن عصر إسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة. أما ابراهيم فلأنه قائد عظيم فهو لا يزال يحتفظ بنصيب

من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له أمام دار الأوبرا نراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده، على حين أن سليمان باشا، هذا الفرنسى الذى اعتنق الاسلام وأصبح معروفا - إلى جانب ما يعرف عنه - بأنه أيضا جد نازلى أم فاروق فقد استمر تمثاله - الذى يمثله بسراويله الواسعة وبطربوشه - قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيل من الميدان القريب من محل جروبي حيث كان يعطى بعض ظهره للسيدات البدينات المندفعات صوب الشيكولاته، ومن حل محله؟ تمثال باهت الشبه بطلعت حرب مؤسس بنك

والذين يهيم ذوقهم بعطر الماضى الحديث هيهات أن يجدوا لهم غنيمة تفوق غنيمة زيارتهم لمتحف السكك الحديدية بالقاهرة، ما دام باقيًا. أنه منزو بالقرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النماذج والصور الفوتوغرافية، تشهد باستباق مصر لدخول عصر السكك الحديدية في وقت مبكر. وقد وصفت لك من سابق محمد على وهو يباحث كيرزون في مدخط حديدي، وقد تم مدخط بين القاهرة والاسكندرية سنة

١٨٥٦. ويحتفظ المتحف في أحد مخازنه الجانبية بالقيطار المسمى «بالكشك» الذي كان مخصصا لسعيد باشا والى مصر الذي أعطى الإذن بشق قناة السويس، أنه بين القطارات عديل سيارة رولزرويس بين السيارات وهو من انتباج مصانع ستيفنسون. أول المصانع في إنشاء السكك الحديدية إطلاقا - وتم تسليمه سنة ١٨٢٦. وقــد طلى القطار من الخارج بألوان زاهية جعلتـه براقــا كقطع الكريستال البوهيمي إرضاء للذوق الشرقي، وفسرش داخله بالطنافس فامترجت مع الآلات الملمعة امتزاجا غريبا. وكان سعيد باشا - الـذى كان بـين أفراد أسـرته الذين لا تنقصهم البدانة أكثرهم امتلاء – مشهورا بيأنه كان يقود هذه القاطرة بنفسه في زياراته لاقطاعات أقاربه وأصدقائه.

أما عمران القاهرة فالفضل الأكبر فيه راجع إلى إسماعيل. تدين له إحياؤها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الإيطالي، وأحيانا بنصيبها من رشاقته أيضًا. من أجل إسماعيل جرى إطلاق اسمه على هذا الميدان الواسع الذي كان فيها مضى تشينه الثكنات البريطانية

فتحول إلى منظر فخم بإقامة فندق الهيلتون مكانها. ولقد أقيم في سرة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قمتها تمثال إسماعيل وبذلته الرسمية، وتبدل اسم الميدان من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان التحرير.

أما دار الأوبسرا فهى إلى اليسوم درة منجسزات إسماعيل، بنيت على عجل من الخشب والجمس لتلحق إفتتاح قناة السويس، ولكن تعجل الحاكم الشرقى لم يجد مجاراة له عند الملحن المكلف بإعداد أوبرا عايدة لليلة الافتتاح، فلم يستطع فردى إتمامها، ومثلت بدلها أوبرا «ريجوليتو». وقد حضرت يسوم ٢٨ ابريسل سنة ١٨٦٤ أداء بديعًا لأوبرا «لاترافياتا» مترجمة إلى العربية فقدم إسراهيم رفعت نصًا بلغ القمة في قابليته للغناء، ولكن السيدات اللاتي استضافتهن فيوليتا في صالونها جئن من عصر أشد ديقراطية من عصر إسماعيل الذي لا يـزال الحرف اللاتيني الأول من اسمه محور الـزخارف المعدنية المذهبة على مدخل دار الأوبرا.

الفشال الفضائر القاهرة.. طابع الأجانب

يجىء الأجانب في الصف الثاني بعد أسرة محمد على، أسهم، وربما بتوالس معها - حققوا للقاهرة، ولأنفسهم أنا تم كثيرة - فالبارون هر تزيدين له هواة الفن بالشكر المتقدير لأنه كان بمثابة القلب المحرك للجنة حفظ الآثار لإسلامية، فلولاه - وهذا مثل من عديد - لبلى الساتر المنسبى ذو الزخارف الدقيقة في مسجد المارداني وتحول الحياب.

وهدذا بارون آخر - البارون إمبان - كان الهمة الدافعة لعمران هليو بوليس الضاحية الشمالية للعاصمة، أنشئت سنة ١٩٠٦ ويبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ ألفًا.

وقد انفق البارون إمبان أرباحه من شركة الترام في بناء قصر له على الطراز الهندى، يعد من أغرب الأبنية في القاهرة، إنه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لأحد معابد مادورا في الهند ببرجه الشاهق المخروطي وتماثيله على هيئة الفيلة، وزخارفه على شكل رءوس مفزعة لمخلوقات خليط من حيوان وبشر. أما من الداخل فقــد زود البارون قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى في بلجيكا، واتخذ من الشباك ستائر نوافذه. وإمبان مثال للمغامرين الأجانب الذين وجدوا في النظام الاقتصادي لمصر قبل الثورة مرتعًا خصبًا لهم، لم يكن بـطبيعة الحـال محبوبًـا لأن تشبهه بـالأمراء لم يـأتلف مع سماحة الشرق. وكان يهيم بالمعارك، ولكنه حظى بصداقة الملك فؤاد، فترجم هذا العطف إلى امتيازات كبيرة غنمها.

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون إمبان أحيانًا قليلة، فقد سبق له في الريفييرا في فرنسا حوالى سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه إلى الملك الفونسو الثالث عشر وهو لا يزال على عرش إسبانيا، ثم قام

الملك بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذا له اسمًا مستعارًا، فدعاه البارون إلى العشاء في قصره الهندى، وقبل الملك الدعوة، ولما اجتاز صفوف الرءوس المفزعة وجد بقية الضيوف جماعة من أصدقاء البارون القدامى، كلهم من محتسر في القمار في النوادى الليلية، أو من ارتستات الكاباريهات، وجلس الملك إلى المائدة، وكان جلوسه هو كل شيء فعله، لم يأكل، لم يشرب، لم يتكلم وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح جيرانه كأنهم خشب مسندة، ولما انتهى العشاء قام الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف.

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندى الذى صار مثل فيل أسمر في حديقة خشنة ماتت أشجارها التي لم تجد من يدفع ثمن مياه ربها. وقد أبدى أحد الأمراء السعوديين مرة استعداده لتحويله إلى استراحة لزملائه السعوديين عند حضورهم إلى مصر للتمتع بجوها، ولكن المشروع أهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة ما أعدته له هذه الاستراحة.

ولكن ما بقى واضعًا من نفوذ الأجانب هى هذه المطاعم والفنادق ذات الأسهاء الإنجليزية ففى مطعم «سان جيمس» - الذى اشتهر وانفرد بتقديم جمبرى البحر الأحمر - يعرض عليك صاحبه بزهو قصاصة ترجع بك إلى الماضى، إنها من جريدة «الإجبشيان جازيت» في عام ١٨٩٥ تقول:

«سيطبق المحل في مكانه الجديد إلى الموسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجد السادة المقيمون حجرة للنوم مع الافطار تمامًا كما هو متبع في حي وست إند بلندن في المناطق المجاورة للنوادي الراقية الخاصة».

واختفت التقاليد الأنجلوسكسونية تمامًا من فندق شبرد. اللهم إلا اسمه، ويرجع عهدها إلى العصر الفيكتورى حين أنشأ هذا الفندق رجل مغامر جسور وجعله استراحة للذين ينزلون في الإسكندرية من سفنهم ويغادرونها بالقطار ليلحقوا ببواخرهم في السويس. لقد كان فندق شبرد القديم معقعلا من معاقل رجال الإمبراطورية العظام، وكانت الجرائد تهتم بنقل كل

ما يدور في أرجائه حول أثاثه الخيزراني ونخيلاته المغروزة في قصاريها. فمثلا اهتمت الجرائد بحفلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩١٥ حيث دار الرقص حثيثًا في القياعة المصرية بالأزياء الغريبة المبتدعة، وفي نصف الليل.

«أعاد صوت تردد في القاعة بعض الضيوف المجتمعين إلى الواقع حيث شاهدوا نموذجًا كاملا لطائرة ترتفع بلطف من القاعة إلى أعلى نقطة في صالة الرقص، وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه ابتسامة وجهها إلى الحاضرين جميعا. واطلقت حمامات تحمل أشرطة عليها التمنيات الطيبة كها قام الجميع برمى كرات ثلجية كتذكارات لطيفة، ولكنها لم تكن باللينة في حالة الضابط الصغير الذي طارت كرته داخل القاعة وأصابت وجه الجنرال ماكلارن. وكان وقتًا عصيبًا سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة. وأخيرًا انتهى كل شيء ونامت القاهرة ملؤها الحيرة والتعب..

أما عن أثر فرنسا فإن لغتها كانت - حتى في ظل الحماية البريطانية - أكثر تداولا من اللغة الانجليزية، ولا تزال الليسيه الفرنسية قائمة ولا يزال الجزويت يحتفظون بمعاهدهم، والمجمع العلمي المصرى هو الوريث غير المباشر للمجمع الذي أنشأه نابليون. وهناك جامعة أمريكية، ولا تنفك تتسع، ويمثل طلبتها بعض مسرحيات تنسى وليامز.

وتتناثر في القاهرة بنسيونات متواضعة للأجانب الوافدين من وسط أوروبا، كصديقي يانكو، وهو ارستقراطي من سلوفاكيا يهوى الرسم، ويقطن في شقة تطل على وزارة الأوقاف. إنه يضع على عينيه نظارة سوداء، ويعيش مع كتبه ومجموعته من نبات الصبار، ويشرب الزبيب في شرفة يرقب منها المارة، ولا يخرج من داره إلا ليشترى حاجته من سوق الخضار المسقوف في باب اللوق أو مزيدًا من الزبيب من بقال يوناني قريب من داره، ولا يفوته حضور افتتاح معارض الرسم العديدة التي أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم. أما رسومه هو فبالألوان المائية على ورق غير مستو، وله

أعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هـو «الأحداث المشردون» وقد علقت بصالة الخريف. ولما سألته عن الطابع المصرى في الرسم أجابني «ماذا تقول؟ ليس عندنا إلا جزر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد الفاسد كما كان الشأن في الإسكندرية في أواخر حكم الإغريق، ولا غرابة، كان الأمير يوسف كمال حين أنشأ مدرسة للفنون الجميلة سنة ١٩٠٨ قد اختار معظم مدرسيها من الفرنسيين، ولكن العجيب أن المصريين بعد انقطاع عن الفنون التشكيلية على مدى ١٤ قرنا -باستثناء العهد الفاطمي – قـد أخذوا الآن يعـودون إليه بحماس كبير. وخديجة رياض - حفيدة أحمد شوقي الشاعر – تعرض لوحات تجريبدية ولكني أفضل شغلها في الحــلى إنه بــديع، ورءوف عبــد المجيــد يحيــل أكــواخ الشواطئ إلى تكوينات تجريدية فكأننا بإزاء عالم صامت منفرد لا تطيب له النفس وأفضل المصورين عندي هي عفت ناجي، وقد اشتهر أخوها محمد برسم هيلاسلاسي في الحبشة قبل الحرب الإيطالية، وتستلهم عفت رموز السحر - هذا العنصر الدائم في حياة مصر - السحر

الأصيل الشرانى، لا السحر المدعى طلبًا للتصاحب ولبريق التنظاهر، ثم تحيلها إلى رسوم، وهى لا تعنى بقاييس الذوق أو الموضة الشائعة، وهما مطبان خطران على الفنان، ورموز عفت السحرية هى من تشكيلات خشبينة بارزة، فلها أبعاد ثلاثة، وتصبغها بدهان لامع كالفلورسنت»

أعود إلى صديقى يانكو، إنه تحول الآن إلى التصوير الفوتوغرافي، وقد ظل مرة ساهرًا طول الليل ليلتقط هذه اللحظة الخاطفة التى يزهر فيها نبات صبار مرة كل ثلاث سنوات.. ويقول يانكو بشىء من المرارة «الزهور؟ نعم! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور، ولكنها عند المصريين أشياء توضع في سلة مفضضة، محزومة بشريط طوله عشرة أمتار، وترسل لحقل زفاف»!

وأقول من جديد أن هذا الذى أكتبه قد عفى عليه الزمن، فقد تلقيت أخيرًا من يانكو بطاقة بريد مصورة وعلى طابعها خاتم ميونخ.

الفضالكادى عشر

القاهرة.. الطابع الإسلامي

العمارة الإسلامية التي ابتدعتها القاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة في هذا الفن، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل. وقد رأيت أن أنسب هذه العمارة إلى الإسلام، لأن نسبتها إلى السراقنة - كها فعل القرن التاسع عشر دائبًا - منافية للدقة والصواب، ولأنه كما يقول أئمة المتخصصين اليوم، لا يجوز إطلاقًا نسبتها إلى العرب، وها هو ذا الأستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم، وقد يغتفر لى أن ألجأ إلى الصفة المشتقة من كلمة «الإسلام» لأنها الاسم الذي يطلق على

هذا الدين وحضارته، فهى أفضل عندى من كلمة «المسلم» التي هي صفة من يعتنق الإسلام، فمن محامد النسبة التي استخدمها أنها تنطبق على أبنية أنشأها معماريون مسيحبون.

وحتى القول بان هناك مدنا أخرى تزهو كل منها عِثَالَ للعمارة الإسلامية أو في صدقًا وكمالا هو قول موضع نظر. حقا إن كل من زار بورصة (في الأناضول) ورأى عمائرها لا يسعه الإعجاب بألوانها الزاهية، وإن عشاق نقاء الشكل في الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (في لواء كربلاء) أو لبقايا قصور سنامرا (سر من رأى) التي بنيت في القرن التاسع، وإن ضريح تاج محل الذي تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته، ولكنها جميعًا إما أبنية فرادى، وإما – كما هو الحال في بورصة ﴿ أبنية من نتاج عصر واحد. أما القاهرة فهي وحدها التي تشهد بتطور متصل قرنًا بعد قرن، يتدرج من السذاجة عبر البساطة إلى تعقيد التركيب، ومن الإزدهار العفي إلى الذبول السقيم. وهكذا فإن سجل

حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والآجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنًا هو الآن معروض للناظرين. وقد كانت بغداد خليقة بأن تنافس القاهرة، ولكن بغداد خربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف. لذلك إذا أردنا أن نتذوق الفن الإسلامي بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما في قصر الحمراء، وبغير أن يشوهه تعمل مبالغ فيه كما في عمارة الهند – فينبغي لنا، كما يقول ستانلي لين بول – أن نتأمل مساجد القاهرة وأضرحتها.

وإذا كانت القاهرة بهذا النمو العشوائى لأحيائها السكنية تبدو مختلطة المسالك، فإن ميزتها أنك إذا تأملتها بصبر وجدتها لاتكشف لك عن اختلاطها الذاتى فحسب، بل تكشف أيضًا عن اختلاط جانب دخيل وجانب أصيل لحضارة تتمركز في القاهرة، وهي إذ تكشف تفسر، إن مشوارًا طويلًا في يوم واحد (وإن كان من الأفضل تجزئته على أيام عديدة) هو بمثابة درس لك، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة إلى الجنوب الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، كما تفهم تطورها.

وينبغى أن يبدأ المشوار من الطرف الجنوبى للقاهرة بنت اليوم. وأفضل وسائل القيام به هو ركوب قطار ضواحى من محطة باب اللوق (وثمن التذكرة في الدرجة الأولى ثلاثة قروش، أى مايعادل ستة بنسات) ثم تنزل في المحطة الثالثة. محطة مار جرجس، فتشرف على مدخل ضيق لكنائس لاتخلو من دمامة. أحن رأسك تحية لها والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصون القاهرة الرومانية، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة في غد، ثم المض في طريقك واسلك دربًا معتبًا متربًا يحافى السور الذي يضم الكنائس، فإذا بك تصل إلى أقدم مسجد في القاهرة.

وقد تم فتح مصر سنتى ١٤٠-١٤٦م وفاتحها هو عمرو بن العاص، وكان فى شبابه من أصحاب الرسول الذى توفى سنة ١٣٦. وقد جاء عمرو من الأراضى العربية حيث - ونحن ننقل مرة أخرى كلام الأستاذ كرسويل - «لم يكن لأهلها العرب قبل الإسلام - فيها يبدو - إلا فكرة بدائية عن فن العمارة، فلم يكن معبدهم قبل سنة ١٠٨ يزيد عن أربعة جدران فى قامة

الرجل تدور حول بئر زمزم، وبعبارة أخرى كانت الأراضى العربية تمثل فراغًا معماريًّا تامًّا أو يكاد». وعمرو الذى شرب من ماء زمزم كان قائدًا عبقريًّا، سلس الإيمان بدين سلس، فكان فى حاجة إلى جامع يؤدى فيه صلاته. لاشك أنه رأى هذه الكنائس التى مررنا بها لتونا على الصورة التى كانت لها فى الأصل، إنها تختلف عن الكنائس الواقعة إلى الشرق من مصر فى سوريا وفلسطين فهى بادية التقشف مكنونة، تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلها إلى الاقتصار فى غموض على الذات.. وقد خصصت سوريا وفلسطين بالذكر لأن المسلمين ظلوا زمنًا طويلًا يشاركون في بالذكر لأن المسلمين ظلوا زمنًا طويلًا يشاركون في كنائسها، يصلون فى جانب، ويصلى المسيحيون فى الجانب الآخر.

واليوم في الموقع الذي تدبر فيه عمرو كيف يفي بحاجته، لانرى إلا سورًا عظيًا من الآجر المغطى بالجص، كأنه مهجور، له ثلاثة أبواب، فإذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة أرضها من الرمل، هذا البهو في الوسط يسمى بالصحن، إنه مصطلح فني يحسن بنا أن

نتذكره، وإلى أمام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الأروقة، وهي غابة من الأعمدة غير المتشابهة تتفتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين. وهذا الجامع الفسيح العادى البسيط، كان في الأصل معدًّا في المحل الأول لأغراض عسكرية، ليتاح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقيموا صلاتهم في أمن. لم يبق منه اليوم إلا أشباح تتراءى في الجامع الذي نزوره، فلا يكاد يكون قد بقى منه قالب واحد من الآجر أو عمود مستعار من بناء آخر، لأن جامع عمر و كان يوم إنشائه ضئيلا بالقياس إليه اليوم، ضئيلا ليناسب مدينة الخيام (الفسطاط) التي استحدثها عمرو خارج بابليون المسيخية. هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع، يبلغ طول ضلعه ۱۰۰ ياردة، أما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية (٢٩ في ١٧ ياردة) وكانت أرضه مكشوفة مغطاة بالجص، وعلى قوائم من جذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين، كما كان حال بيت الرسول في المدينة، أما الجدران فكانت من اللبنات. وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه. ثم أهمل وتهدم ثم نجدد مرة أخرى

إلى زمن محمد على، وهو اليوم أفضل بداية لجولة فى القاهرة الإسلامية.

فإذا خرجنا وتلفتنا نبحث عن سيارة أجرة (وعسير العثور عليها في هذا الحي الفقير) ورضينا بالسير على الأقدام، وجدنا أنفسنا نطأ أرض أول موقع للقاهرة الإسلامية. كانت مدينة من الخيام نصبها البدو. حقًا إنه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أوان فخارية بدائية.

وكانت حركة العمران في القاهرة الإسلامية تتجه دائهاً إلى الشمال.

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط وإلى الشمال منها مسافة ميل واحد، انشئت المدينة الإسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسى، فقد جاء ابن طولون من سامرا (سر من رأى) التى شيدها الخليفة المعتصم، وقد أعياه تتابع الصدام فى بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الأتراك، مدينة لم يسبقها فى الضخامة والطموح إلا مدينة روما العتيقة،

فقد كانت فسيحة الطرقات، تتقاطع متعامدة، ولا يزال تخطيطها الهندسى بيناً عند تصويره من الجو، ما أشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم. ولأن ابن طولون، وهو نفسه من الاتراك – قد جاء من هذه المدينة الكبيرة، فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة، وكذلك وجد اشباعه جامع عمرو – رغم أنه كان قد زيدت مساحته – أصغر من أن يفى بحاجتهم لأداء صلاة الجمعة. أين هو من جامع سامرا الذى كان يتسع لستين ألفا يصلون ماعة معاً.

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ فى اقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه (اللعب بالكرة من على ظهور الخيل، أى لعبة البولو الحديثة). خلة واحدة تؤلف بين العرب والأتراك وهى عشق الخيل، ولكن الذى كان يؤلف قبل كل شىء بين ابن طولون ورعيته من المصريين هو الدين الإسلامى الذى يطرح الفوارق القومية التى يتعصب لها العصر الحديث وتلح عليه إلحاحًا شديدًا. وكان ابن طولون متديناً، تقيًّا، ورعاً.

وها نحن نذهب اليوم لزيارة جامعه.

حقا إن وصوله إلينا سليمًا يعد من الخوارق، هذا المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا لمعبد البارثينون. بل هو عندى يوحى بفيض أكبر من القداسة، إنه أميل في الشبه إلى معبد فرعوني منه إلى معبد إغريقي، فهو يخفي جماله من وراء أسوار لابد لمن يؤمه من المؤمنين من اجتيازها. وهو مقام على تل صغير ليكون بمنجاة من ماء الفيضان، ولكنه لا يطاول الأكروبول في الارتفاع، فأنت تصل إلى مدخله عبر طرقات زاخرة بالضجة والزحام – وقد نظمتها البلدية على نحو يكاد يكون دميهًا. فإذا جاوزنا المدخل الفينا أنفسنا وقد شملنا جو يوحى بالسكينة والبساطة وتجانس العناصر، ويتكشف الصحن للساء فتحرقه الشمس وتجلله بالصفار. وفي وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها قبة ترجع إلى سنة ١٢٩٦، وهي أقل قيمة من القبة الأصلية التي كانت مقامة على عشرة أعمدة من المرمر، طلباً للجمال وحده لا للنفع، فنحن نعلم أن ماء الوضوء , لجموع المصلين كان مبذولًا ميسرًا من وراء الجدار الغربي

للجامع الأصلى. إذا كان الصحن هو بمثابة الصحراء فالفسقية هي الواحة والعقود هي الغابة التي ترمز لما في النفس من تشابك المنازع المتضاربة، فيطالعها في ظلال الأروقة جو رطيب يشعشع فيه الجذل الروحى ويخيم فيه السكينة الداعية إلى الاستغراق في التأمل والاستعبار، فالمسلمون الذين أخضعوا صحارى الشرق الأوسط لم يألفوا الغابات إلا قليلا، ورأوا غابات النخيل على شاطئ دجلة وغابات شجر الأرز في جبل لبنان، إلف نادر وقصير الأمد، فهو يتوهج في الذاكرة كما يتوهج القرآن الذي نزل في مكة قنينة الرمال كلما تحدث عن الحدائق والجنان، فالساء والصحراء والماء والغابة، هذه الأشياء الأربعة إنما توحي بشيء خامس ينطوي في وجوده وجود كل الأشياء: الله. فأنت في هذا المبنى لا تستشعر الله في رؤيتك لتمثال - فليس في الجامع طبعًا تماثيل – أو لتفاصيل من زخارف، ولو أن الزخارف الجصية حول الشبابيك بديعة الجمال، بل تستشعره في هذا الانسجام الكامل المطلق حيث لا عوائق بارزة وحيث تجد كل حنية من حنايا الروح رمزها..

وفي المساحة التي أضيفت للجامع وفي حضن أسواره العالية تقوم مئذنة من الحجر الرملي، كأنها مسخ لطراز معماری قدیم، فنصفها مربع ونصفها اسطوانی. وقد تعددت واختلفت الآراء في تعيين هذا الشكل العجيب، فهناك رأى يقول إن ابن طولون كان رجلا منصرفا إلى عمل نافع أو متحفزًا له، يكره البطالة والمتبطلين وكان جالسًا ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريده أن يكون من طراز جديد غير مسبوق وأن تتمثل الجدة في استغنائه عن الأعمدة لأنها تنتهب عادة من الكنائس، فرآه جلساؤه يلهو بورقة في يده، ويلفها في غير مطلب، فلها أحس أنهم ضبطوه وهو يعبث أراد أن يبرهن لهم أنه كان منصرفًا إلى عمل نافع يتدبره، وقال لهم من فوره «اعملوا لى مئذنة على هيئة هذا المخروط الذي في یدی ».

ولكن التعليل الأقرب للعقل هو أن تذكر البرج المخروطي الهائل في جامع سامرا، وهو نفسه أحد المناظر العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت في بابل قائبًا في زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع ١٧٠ قدمًا إلى الآن في أفق بغداد. ولكن إن كانت عقود الجامع وهي من الطوب الأحمر المغطى بالملاط والجص، وكذلك زخارفه في الأزوقة وحول الشبابيك باقية كها كانت فإن المئذنة التي نراها اليوم ليست هي التي كانت قائمة في البداية، فمن المستيقن أو يكاد أنها بنيت من جديد على يد السلطان لاجين في عهد المماليك. والمئذنة في شكلها التي اتخذته في عصر أصبحت فيه المآذن تزهو برشاقة تغلو أحيانًا فتبلغ حد التخنث، تمثل محاولة متعثرة للعودة بالمئذئة إلى أصلها الذي عرف كيف يقتبس في غير اختلاط أو اضطراب هذه الخطوط المنسابة التي ميزت المخروط الهائل في مسجد سامرا. ولم تكن المئذنة منذ إنشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة شاذة، إذ كانت المآذن – هذا الشكل المعماري المستقل – تستفتح أول عهود تطورها على مراحل امتدت قرونًا عديدة. وكانت أوائل المآذن أبراجًا مربعة حول الكنيسة الكبرى في دمشق التي أصبحت فيها بعد مسجدًا. وكلمة مئذنة في الأصل تعنى «مكان يسترعى فيه الانتباه» وكان يكن أن تطلق على فنار كمنارة الإسكندرية.

والمدينة الإسلامية الثالثة – تلك التي اتخذت لأول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع إلى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل، وكان إنشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه. لن يسعفك قطار أو ترام لزيارتها، ومن الأصوب أن تعدل عن ركوب التاكسي وتعتمد على قدميك، هذا بفرض أنك زرت جامع عمرو مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريبًا.

لهذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية - متينة عفية - من طراز بيزنطى. جناحاها المحصنان ترتفع فوقها - كأنما تتهلل لنا - مآذن رشيقة أقيمت في عهد لاحق. كانت تتهلل في الماضى للمجرمين، هي حقا جسر التنهدات وبعد أن كانت تتدلى منها حبال المشانق أصبحت مأوى خفيًّا لسيدى المتولى، إنه قديس يطير في الهواء من مكة إلى القاهرة بالسهولة ذاتها التي يطير بها بطل من ألف ليلة وليلة، إليه تكتب العرائض والشكاوى ويزج

بأوراقها ما بين المسامير وخشب الباب، أما استجلاب شفقته فيكون بلف مزق من قماش حول المسامير.

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولى يسمي « باب المتولى». وهناك طريقان سهلان يؤديان إليه كلاهما ممتع لك. فإذا كنت تمشى مرخى القياد، غير متريث لتتأمل أثرًا معماريًا تقصده لذاته، إنما تتشرب بنظرة شاملة هذا السحر الذي تنفثه عمائر مسلم لها كمالها، أو تعرضت للبلى، فإن سيرك في أي الطريقين سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار ويناقضان ما بقي في نفسك من جو القبور التي تجلت لك تحت أضواء الفجر عند جامع عمرو.. أو من صرامة الجد والاحتشام التي استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه الأساسية. وتكفيك نظرة إلى أي خريطة لآثار العصور الوسطى في القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين فهما يتحاذيان أو يكاد، ويتجهان إلى الشمال فيكون النيل على يسازك والقلعة وتلالها الجرداء عن يينك، , وبدايتها واحدة، فأنت تغادر جامع ابن طولون المستعلى

فوق رابيته، فإذا خرجت من بابه انعطفت إلى اليمين حتى تبلغ شارع الصليبة الممتد شرقًا وغربًا، هابطا من الميدان الكبير تحت القلعة إلى أن يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتداده المستحدث حتى النيل.

وشارع الصليبة شارع جديـر بأن تعـود إليه بـالليل. ترى فيه «سبيلًا» من طراز تركى، وحمامًا عتيقًا أسدل على بابه - كستارة - بشكير حمام يستعمل كإزار، وجامعًا له قبتان حيث يـرقد اثنـان متصدقـان من رجال المماليك، والأفضل أن تكون هـذه الجولـة الليلية آخـر شيء تفعله قبل أن تأوى إلى فراشك، وأن تكون بسيارة أجرة تسير بك على مهل، ولكننا الآن بالنهار، فـأنت إذا تابعت شارع الصليبة في صعوده إلى القلعة بلغت مفترق طرق، ورأيت مشربًا للشاي – شتان بينه وبين أمثالـ في أوروبا رغم وحدة الاسم. قد تخير مكانه قبالة «سبيل» انطلق فيه فن العمارة التركي على هواه، حتى لتظن لحيظة أنك أمام منظر في أواسط آسياً لا في إفريقية، وللسبيل قبة جانبية يعلوها هلال، وخمسة اضلاع بارزة

النقوش وفق الذوق التركى، وشبابيك حواجزها مصنفرة بدقة وتداخل بارع. بجانب السبيل دك البصل، يتعهده شيخ يعتم بطاقية بيضاء. إلى جو مشرب الشاى رجل لفه الذبول يحتسى قدحًا من باللبن.

سأعيد لك وصف جولتي محددًا زمن كل رحلة للقراء جاعلًا قيامي بها في يوم معتاد من أيام شهر والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبدأ أول مؤد إلى باب زويلة، يسمى ابتداؤه بشارع السيوف يتد مستقيًا وإن تغير اسمه أربع مرات، ولا يا إلا شارعًا واحدًا كبيرًا، وهو الشارع الذي كان من قبل شارع محمد على وأصبح اليوم يسمى بالقلعة، فإذا بلغته فجاوزه محاذرًا حركة المرور الما فيم، وتابع سيرك في نفس الاتجاه فإنه الطريق اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات، ما هو إلا واحد متصل. إنني أمر بذبائح الجاموس وعلى أختام بنفسجية تتدلى أمام جدران بنيت قبل أول ا

للبطاطس – وهو معروض أيضًا أمامي للبيع – من أمريكا للقاهرة، ثم دكاكين صغيرة يشتغل أصحابها قعودًا في نسج السجاد، ها أناذا أرى صدفة أربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها، ثم أمـر بعد قليل ببرميل ممتلئ بالفلفل الأخضر اللامع فيهيج شوقى إلى أن أصنع لنفسى «سلطة» متبلة، ثم بأكوام من الطماطم، حباتها كبيرة. شتان بينها وبين طماطم أوروبا التي لا تنزيد في الحجم عن كرة البلياردو - ولكنها تشكلت باعتساف كأجساد الفلاحين في لوحات المصور بروجل، ثم إذا بصبي يمرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحًا بحزمات خضراء وهو ينادى بصوت عال «نعنـاع. نعناع» كم هي عسيرة هذه الكلمة على نطقي، ولكن ها هو عطر جديد يختلط ببقيـة العطور التي تمـلأ خياشيمي، ثم أمر بجدار تتدلى منه سلاسل من الأحذية والشباشب والصنادل، ثم ها هي امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقا اسمه «الدقة» وهي اخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة، شتان بينها وبين الفلفل، إنها لا تهيج شوقى إلى دخول المطبخ. ثم أمر بدكان مشيد حديثًا بالأسمنت

المسلح، فهـو دميم في هذا المكان، تعالت عـلى جـوانبـه كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته أتريث من جديد حين يتسع الطريق قليلا ويستطيل، أدخل مقهي أمامها سقيفة، بلدية هي ولكنها مريحة، عليها لافتة تقول «قهوة محمد ناصف وأولاده» وأشرب فنجانا من قهوة ناصف التركية «سادة» أي خالصة بغير سكر. على حين بمر أمامي حمار يجر عربة محملة بالقدور الكبيرة، حشرت في أفواهها سدادات مكورة من الورق، هي قدور الفول المدمس، إنه الطعام المفضل الذي يلتنزمه المصريون لفطورهم، يخلط بالـزيت ويتبل. ادفـع ثمن قهـوتي ما يعـادل خمسة بنسـات – ثم أمضي فأمـر على «قصارى» الأطفال من قبل أن أدخل إلى القسم الاخير من الطريق. إنه سوق مسقوف «وكلمة بازار الشائعة في الهند غير مستخدمة في مصر». وهذا السوق أمتع بكثير من سوق خان الخليلي ذائع الصيت، فيخ السائحين من قديم. فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذي يرسم لك أقرب صورة إلى الصدق باقية إلى اليوم من حياة الناس في عهد المماليك.. أبواب ضخمة – متروكـة

الآن مفتوحة دائمًا – رشقت فيها كرات من حديد، وكان التجار يغلقونها بالضبة والمفتاح إذا ثارت ثائرة المماليك، هنا تستطيع أن تشترى بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتنذكرك به، كلها من أجل الدواب، فهذا السوق متخصص لصناعة اطقم الخيل والحمير، والسرج وغطاء السرج والعذار المنسدل حول رأس الحصان من خيوط صوفية، وهي أشياء تقصد أيضًا إلى الزينـــة وإن بقى لها نفعها وثمنها معتدل، ثم إذا بهذا السوق الذي يتسلل إليه – كأنما من مصفاة – ضوء شاحب، ينتهي فجأة عند باب زويلة. هنا أنظر إلى ساعتي، إن مشواري من جامع ابن طولون - مع حساب تريثي لشرب الشاي عند السبيل ثم لشرب القهوة فيها بعد عند محمد ناصف وأولاده – قد استغرق من وقتي ساعة كاملة، لا تزيد ولا تنقص.

أما الطريق الثانى فهو يتساوى مع الأول فى المتعة، وإن كان أطول وأكثر تعرجًا، فلتأخذ شارع السيوفية طريقك، ثم انعطف فى أول شارع يتجه بك يمينا إلى القلعة فتجد جامعين كبيرين – أحدهما جامع السلطان حسن الذى سنزوره فيها بعد – يحيطان بالطريق وهما

على حافة وسعاية صغيرة، فلا تعرج عليها واقطع شارع القلعة الذى لا يخلو من دمامة، ثم ادخل شارع سوق السلاح وهو شارع مزدحم ذو أبنية متداعية تريد أن تنقض، حتى إذا بلغت نهايته اتجه يسارًا إلى شارع التبانة الذى يمر بجامع المارداني(١١). ثم يتجه غربًا فيحيط بالدرب الأحمر، وهنا تتكرر المساجد والمدارس العتيقة وأنغام الموسيقى الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة الجو الأصيل الذى عرفناه. وإذا بك فجأة تجد باب زويلة شائعًا على يمينك غير مواجه لك.

⁽۱) بنى جامع المارداني في سنة ١٣٣٩ وهو يمثل خير تمثيل قدمة المزج في الفن المربى الإسلامي، فأعمدته من كل شكل وحجم.. فمنها الجرانيتية الحمراء المأخوذة من المعابد الفرعونية، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسبحية القبطية. وتيجانها محلاة بمزهر اللوتس أو بالأزهار ذات الطراز الكورنئي بل إن بعضها وضع مقلوبا رأسا على عقب، ولكن المطريقة التي وضعت بها تضفى على الجميع وحدة تدعو إلى الدهشة مع أناقة تؤثر في النفوس. وهذه القدرة على مزج العناصر المتباينة من طراز جديد واحد هي إحدى السمات الواضحة في الفن الإسلامي العربي. كما أننا نرى في المشربية التي تفصل بين رواق القبلة عن صحن الجامع المحاط بالأعمدة المقنطرة مشالاً رائعًا في أعمال الحشب في القرن الرابع عشر الميلادي وإن تجدد أكثره. وقد كان المارداقي ساقيا للحاكم الملوكي الكثير المذرية الناصر عمد بن قلاوون وزوج احدى بناته، ثم صار حاكها على حلب حيث وافته منيته.

وهكذا تجدنى دائم السعى إلى باب زويلة كأنما كانت هذه البوابة هى محط الأنظار، وإنها لكذلك، فهى المدخل إلى القاهرة الأصيلة.

وكما أن لندن الأصيلة عبارة عن نواة مسورة في وسط سوق أقيم حولها، فكذلك القاهرة، اتخذت اسمها وطابعها من قطعة مربعة من الأرض لا يزيد ضلعها عن ألف خطوة. هذه المدينة الداخلية التي بنيت أصلاً لتكون مقرًّا لشئون الحكم والدين، لا للإسكان والمعيشة، هي مدينة القاهرة. وهذه المساحة يحدها شمالاً الجزء الشمالي من سورها الأصلي، وشرقًا سور صلاح الدين الذي أقيم في فترة تالية، وجنوبًا الدرب الاحمر وامتداده تحت الربع، وغربًا مجرى الخليج القديم.

واستمرت القاهرة على شكلها الأصيل مدة قرنين. أما أصل بنائها فمعروف لنا تمامًا.. فهو اليوم الخامس من شهر ما يو سنة ٩٦٩ وهي الليلة التالية لاستيلاء جوهر على مدينتي عمرووابن طولون باسم مولاه المعزلدين الله. أما جوهر هذا فرقيق مسلم من أصل أوروبي،

ومولاه هو رابع من تولى الحكم من أسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها إلى السيدة فاطمة بنت النبي (١) التي تزوجت من على ابن عم محمد وأشد أصحابه تحمسًا للدين. وانبثقت فرقة من الإسلام - وهي الشيعة - تؤمن بأن الإمامة وقف على سلالة على من فاطمة. ويتبع مذهب الشيعة حاليًا نصف سكان العراق تقريبًا وكــل سكان ايران بينها تخلو منه مصر فهي تتبع المذهب السنى، في حين كان مذهب الشيعة هو الأساس في إنشاء عـاصمة البـلاد التي نجتاز عتبتهـا الآن من بـاب زويلة، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود في الضلع الشمالي من هذا المربع الفاطمي لا نزال نقراً ما نقش عليه بالخط الكوفي «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وهو ما يدين به المسلمون جميعًا، مضافًا إليه «على وصى الله ».

أما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة.. ففى ذلك قصة طريفة. فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على أضلاع المربع الذى حدده على الأرض بواسطة قوائم

⁽١) لقد توفى كل أولاد النبي الذكور قبل البلوغ.

من الخشب، وأوصل أعلى هذه القوائم بحبال مدلى منها أجـراس، ووقف المنجمـون المغـربيـون عـلى استعـداد يتفحصون أدواتهم وطوالعهم الفلكية حتى إذا اطمآنوا ي إلى دخول الوقت المبشر بالخير، حركوا الحبال لتمر عبرها الحركة - كتليفون بدائي - فتدق الاجراس إيذانا بالعمل، ولكن الذي حصل هو أن غرابًا وقف على الحبل وسبق المنجمين في هـزه وإعطاء الإشـارة، فانهالت الفئوس والمعاول من آلاف العمال تحفر الأرض. ولم يكن هناك مجال لمنع ذلك، فاكتفى المنجمون بـأن يحسبوا الكوكب صاحب الطالع وقت الخبطة العشواء فسوجدوه المريخ. ذلك الكوكب الأحمر اللون واسمه «القاهر» فأطلقوه على المدينة متحدين بذلك النذر التي يحملها معه وبذلك سميت المدينة «القاهرة» واجتازت النذر بأمان.

ولأفراد أسرة المعز صفاتهم المميزة الفريدة، فهم من ناحية من أصل عربى لا تركى، ومن ناحية أخرى كانوا يهتمون بالفن كاهتمامهم بالعلم، ثم إنهم بحكم شيعتهم قد انفصلوا عن بقية العالم الإسلامي. فظهر في الفن اتجاه حسى لم يظهر في العصور العربية الأخرى، اللهم

إلا في إيران الشيعية، وبدلاً من أن نرى النزخرفة العربية الجافة، نجد منقوشًا على أوانيهم الخزفية صورًا لعازفي العود، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب، وتظهر لهم عيون واسعة وعمائم كبيرة، كما نجد رسومًا لحيوانات أيضًا، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف في المتحف الإسلامي.

ويتميز الفاطميون أيضًا بالسرعة والهمة في الإنشاءات، وخير دليل على ذلك ما نراه إذا ما اتجهنا شمالاً إلى منتصف المربع، ففي السنة التالية لتأسيس المدينة وضع جوهر أساس مسجد وجامعة الازهر في البريل في الجزء الشرقي من العاصمة الفاطمية، ولم تمر سنتان حتى كمل البناء واستقبل طالبي العلم في سنة ٩٧٢.

ولا يزال لهذا الجنء من القاهرة - الذي كان أصلاً المدينة الفاطمية - سحره وجماله بالرغم مما شوه هذا الجمال مما استحدث بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عن إنشاءات العصر المملوكي ذات الحدائق

الداخلية - وهي مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال. وطالما شكا النقاد من أن المصريبين لم يبقوا على كثير من قديهم، ومنهم ستانلي لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عامًا إن «المصلحة التي تعنى بتخطيط الشوارع إنما قامت بمهمتها بأفق ضيق من الفكر في خدمة المدينة» ولكنني أقول إن كل مدينة - بله العاصمة - لا يكن أن تظل على حال واحدة مثل مدينة محنطة، فالناشئة من الأطفال يحتاجون لمدارس يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة بدون الأسمنت وأسياخ الحديد؟ وعلى كل حال فلا يرزال هناك قدر كاف من الآثار يعطى مجالاً لتصور ما كان عليه الحال في الماضي.

إذن فلنأخذ الآن الطريق الذي يقودنا من باب زويلة في الجنوب إلى باب النصر في الشمال، وخير رفيق لنا في هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى «جولات في القاهرة» فهي ترشدنا فيه - كأحسن دليل - في لغة سهلة صريحة، وعن علم خال من الحذلقة إلى ما احتجب من آثار الماضى في أماكنها غير الجلية، وهي قادرة على كشف نفائس كثيرة اضطررنا إلى اغفالها في هذا الفصل

من الكتاب. ولنتركها مع من عندهم فسحة من الوقت تطول إلى سبعة أيام أو أكثر يقضونها في القاهرة مع كتابها ونعود فنتقدم في طريقنا ونترك مستشفى قلاوون والآثار البديعة الأخرى التي خلفتها لنا عصور المماليك ونخطو في شارع بين القصرين الذي يصل باب زويلة بباب النصر حيث نكافاً في نهاية مسيرتنا المضنية في الزحام بجامع ثالث كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت ظلال الأسوار العظيمة مباشرة..

وهنا يكن توجيه بعض اللوم إلى القائمين على رعاية التراث الإسلامي، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم سمى أولاً بالجامع الجديد وبالجامع الأبهى ولكنه يقف الآن في الناحية الداخلية من المدخل الشمالي للمدينة الفاطمية وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب. والأسوار تغطى الجامع وهي حماه، فلكي نشاهده بوضوح علينا أن نتخذ لنا مكانًا فوق أحد برجى باب النصر. واعتقد أنه لو سئل أحد المعجبين بالعرب عما انجزوه لأشار أول ما يشير على الأقل إلى هذه الأطلال في

القاهرة. صحيح أن في القاهرة جوامع أكبر حجاً ولكنه يتميز عنها أنه أقيم لحاكم عربي الأرومة، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب بحريق كبير في مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت قرونا، في حين كانت الترميمات تافهة، فسقط كثير من الجص المنقوش عليه بالخط الكوفي، ومع هذا فله مئذنتان مديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان فوق أبراج مربعة متراجعة، كما انتشر البلي في المجموعة الكبيرة من الممرات المبنية بالآجر تحتها، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات أهمية ركنا من أركانه.

وقد قدمت اقتراحًا لأحد المواطنين العرب بضرورة العناية بهذا الجامع بدلاً من إهماله خصوصًا وأنه يقع فى مدينة ينادى بها قلبًا للعروبة فأجابنى: «ربما كان الكره المذى لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو السبب في إهمال جامعه».

والحاكم - حفيد المعـز - كان أشبـه بالامبـراطـور كاليجولا الروماني. إنه كان مدللًا شديد الأنـانية تنتـابه نوبات من التعقل والجنون، ومن التسامح والتعصب، كــا

كان مصدرًا لكثير من المضايقات للناس في التافه من الأمور وفي خطيرها، وظل كذلك حتى لقى مصرعه. قتله شخص مجهول في الصحراء اثناء تجواله فيها وهـو راكب حماره. وكان من ضحاياه الأقباط فقتل منهم الكثير، وبائعو الملوخية التي حرمها، وهي طعام صمغي القوام محبوب عند المصريين إلى يومنا هذا، وحرم صنع أحذية النساء منعًا لهن من الخروج من بيوتهن ليـلا ونهارًا، ومنع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق الكروم وقطعها، كما حرم أيضا اللعب بالشطرنج، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فأمر بقتل جميع كلاب القاهرة، الأمــر الذي يجعلني أنفر منه. ولكن لابـد أن هذا الـوحش المتألـه كان يملك هالة من المهابة جعلت دروز لبنان يبجلونه إلى يومنا هـذا ويجعلونه رمزًا مجسدًا للفضائل التي تجمعت فيه. ومع كل فإنى اتردد كثيرًا قبل أن ألج هذا الجامع ليلا ففيه من الخفافيش البالغ حجمها كحجم الدجاج ما تنقض وهي طائرة حتى بالنهار داخل البرج المربع المذى تسمو منه المئذنة إلى طرفها المرخرف ويصدر عنها عجيج يطغى على ضوضاء المارة في الطريق.

وبجامع الحاكم هذا تنتهى سلسلة من الجوامع ذات طابع واحد: طابع العزة الدينية، تمامًا مثل جامعى عمر و وابن طولون، نبعت من هذا الدين الذى ينزع إلى الديمقراطية في أحد نواحيه. فكل الناس داخل الجامع سواسية لا تفاضل بينهم، يندمج فيهم الخليفة ولو حضر في فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه. وكانت هذه الجوامع تشعر بالروح العسكرية وبالفحولة مثلها كان الشعب يجمع بين شعائر العبادة وحمل السلاح، وأعنى بالشعب هنا المسلمين، فلم تكن وقتذاك جنسية عربية وأخرى تركية، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفًا خلف إمامهم يسجدون لله كها علمهم النبى العربي.

ولكن في جامع الحاكم ما يوحى بأن هناك تغييرًا ما. ذلك أننا نعلم أن هذا الخليفة كان مختل العقل طاغية ونعلم أيضًا أن حراسه الذين خصصت لهم أحياء كاملة في المدينة صارت لهم سطوة طغت أو كادت على سطوة الشخص الذي كلفوا بحراسته، فكانت هذه الرقة في عقود الجامع التي توحى بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء

حتى فقدوها كلية، وظهرت الرشاقة إلى حد الأنوثة التى تبتعد عن الروح ذات البأس التى نراها متمثلة بوضوح في أعمدة جامع ابن طولون أكثر من أى مكان آخر، فهى مؤشرات تدل على أن الإسلام في عهد الحاكم ابتدأ في الانكماش والدفاع (انتهت الدولة الفاطمية عندما احتل الصليبيون القاهرة لمدة قصيرة سنة ١٦٦٣). ولم تعد الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ما كانت تدل عليه في القرون الأولى عندما امتطى المسلمون خيولهم مشرقين ومغربين، لا حدود تفصلهم عن الدنيا بأسرها، ثم بدأت الفرقة بينهم، وما كان الخليفة الفاطمى ألا واحدًا من الدين ادعوا حق السلطان لأنفسهم ونافسه في ذلك صاحبا بغداد والأندلس.

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيارة أجرة، وفي طريق العودة. على بعد مئات قليلة من الأمتار وفي شارع بين القصرين الذي اجتزناه من قبل ندع السيارة تقف بنا هنيهة - دون أن يبطل عدادها عن العد - عند الجامع الأقمر، وهو أحسن جوامع الفاطميين حفظًا، وله

واجهة جامدة ضئيلة الزخرفة كعادة الفاطميين. ولا نتلبث عنده إلا قليلًا، ونطلب من السائق أن يتوجه بنا إلى جامع السلطان حسن قبل أن يدركنا الليل، وسيسرحتهًا بمنحة قرش أو قرشين زيادة.

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريـح أن المستوى الحضاري للدين – وليست العقيدة نفسها أو تعاليمه – قد ناله بعض التغيير، كما أن المبانى تغيرت في الشكل والروح، فهذا الجامع لا يقل عن جامع ابن طولـون في إظهار قوة العقيدة حتى أن مدخله الشبيه بالدهليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التي صممت لتدخل الرهبة والخشية في نفوس المتعبدين ويشبهها أيضًا في إقامة هذا البناء المتعالى الضخم لأجل ان يضم رفات إنسان ضئيل. ومدخل هذا الدهليز عبارة عن بسوابة ضخمة تعلوها طبقات من المقرنصات المحفورة، وفي نهايته نجد صحنا واسعًا مكشوفًا للسهاء التي تبدو بعيدة لأن الصحن محاط بأربعة ايوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخال أنه محاط بغابة من الظلال. ويوجد الضريح خلف إيوان

القبلة في قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذي كان مستعدًا لاستقبال جثمان السلطان حسن، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بذى خطر كمثيله توت عنخ أمون فهو كان السابع من ثمانية أولاد خلفهم الناصر محمد المملوك الذي كانت له سطوة وقبوة. ولكن ابنه حسنا لم يستطع أن يقيم قاعدة يمسك بها أزمة الحكم بحزم بالرغم مما كان يكنه من عواطف نحو المصريين المسلمين. وكفاه ذكرًا أنه أعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلا أيضا على حالة الدول الإسلامية في أواخر العصور الوسطى.. وهذا الجامع ولو أنه بني خصيصًا ليضم مقبرة فخمة لمنشئه فهو يضم أيضًا أربعة مدارس، فعلى كـل جانب من جـوانب الصحن يوجد باب يؤدى إلى مدرسة يدرس فيها أحد المذاهب الأربعة المعترف بها في المندهب السني، والفروق بين هذه المذاهب صغيرة جدًّا ولا يمكن أن تقارن بمــا بين مذهبي السنة والشيعة من اختلاف. وممع ذلك وبالرغم من هذه الرعاية كها نراها في هذه المدارس وفي الميضأة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فإننا نرى فيه رمزًا للانطواء فالسلطان حسن بالرغم من ميله إلى المصريين

كان مملوكًا أى غريبًا من طائفة لم تندمج من الشعب سواء كانوا في عز قوتهم مشيدين أو كانوا في قلة حيلتهم متقلبين. من هنا نرى أن جامع السلطان حسن قد قطع بنا شوطًا. طويلًا بعيدًا من روح عمرو الذى أقام مدينة من الخيام ويني مسجدًا متواضعًا لجنود ولى عليهم وهم معه سواسية. عمرو هذا الذى قدم من بلاد العرب المحمدية حيث كان النبي يرفع ملابسه في بيت متواضع وحيث شاركت النساء في غزوات الحروب وندوات الأدب، بينها نشأ السلطان حسن على تقاليند دعت إلى حجزهن في «الحريم». ففي جامعه تجلت الملوكية بأوضح معانيها كها تجلت في وندسور في انجلترا.

أما آخر مرحلة في رحلة اليوم فهى زيارة القرافة شرقى المدينة، فهنا شغل المماليك المتأخرون بقبورهم وأقاموها خالية من المدارس والميضآت، إنما هيئت للموت فقط.

وكثير منها جميل وكثير أيضًا متداع، وتعددت القباب حتى صارت رمزًا لمدينة الموت. وقد ابتدئ في زرع الأشجار في الأراضى المحيطة ولكن التراب علا ما بين القبور. هيا نختار واحدًا منها. إذن فلنزر ضريح قايتباى فعسى أن يكون مفتوحًا. وقايتباى واحد من المماليك ذوى النشاط عاش في العصر السابق مباشرة للفتح التركى العثماني. ويمتاز ضريخه بوجود زجاج ملون مرتفع فوق الجدران يسمح للأضواء أن تمر إلى الداخل. أضواء ليست من صنع مصر.

ونكتفى بهذا القدر من التراب ومن ذكر الموت، فالتراب قد زكم الأنوف، وشعر الإنسان أن الدنيا قد انقلبت ترابية كلها. فلنختم رحلة يومنا هذا في فلوكة على النيل حتى يغسل النسيم الشمالي كل كآبة أصابتنا استعدادًا لسهرة المساء. وفي الفلوكة - عندما تقترب الشمس للمغيب - نرى مسجدًا جديدًا بالقرب من كبرى يصل بين الروضة والجيزة، أطلق عليه اسم صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلألا ناطقًا بإحياء العمائر التي تمتد إلى الساء على الطراز القوطي.

الفضل لثاني عشر

القاهرة.. والأمسيات

إن ليل القاهرة يظل عالقًا في الذكر أكثر من نهارها. بل هو مثير للشعور أكثر بكثير من ليالي أوروبا، ويرجع بعض ذلك إلى الطقس، فحالما تغيب الشمس خلف الأهرامات، تهبط درجة حرارة الجو هبوطًا سريعًا ملحوظًا سواء كان ذلك شتاء – عندما تكون درجة الحرارة في النهار حوالي ١٥ درجة – أو صيفًا عندما تعلو فوق ٤٠ درجة. وتبدو النجوم اكثر عددًا وأشد لمعانا بسبب جفاف الجو، بخلاف ما تبدو في الأجواء الرطبة. إذن فها هي المتعات التي ننتظر من القاهرة أن تقدمها لنا عندما ينتشر ألفان من خفراء الليل الكبار السن

ببنادقهم العتيقة يجوبون شوارع المدينة المتطورة ويحرسونها؟.

هناك أولاً ستة عشر مطعمًا تنتشر على طول النيل، يتخذ بعضها مكانا في العوامات والباقى على الحدائق في الهواء الطلق، وتظل مفتوحة طول السنة آمنة من الأمطار التي لا تهطل إلا دقائق معدودة كل عام، ولو أن بعض ليالى الشتاء قد تبعث القشعريرة في الأجسام. أما مطعمي المفضل عبلي النهر فهو كازينو الحمام على الشاطئ الغربي في الجيزة. والجيزة محافظة منفصلة عن القاهرة لها محافظها الخاص بها، وهو يحرم بيع المشروبات الكحولية في شهر رمضان عندما يصوم أتقياء المسلمين عن الطعام والشراب طول ساعات النهار، في حين يسمح بذلك محافظ القاهرة (في بعض الأماكن التي يرتادها السائحون). وعلى ذلك فلك الحرية أن تـطلب - طوال العام خلاف ذلك الشهر - ما شئت من البيرة والزبيب(١) والنبيذ المصرى. وعصير الكروم المصرية في

⁽١) الزبيب هنو الانتباج المصرى للسائيل عديم اللون الذي يتحول إلى لون =

الحقيقة يستحق شهرة خلاف ما هو عليه، فمزارع جناكليس في الدلتا تنتج أنواعاً متعددة من الأنبذة الحمراء والبيضاء بأسعار معتبدلة، وهي بالتأكيبد أجود بكثير من الأنبذة العادية المنتشرة في فرنسا. وعمر الخيام هو أحسنُ الأنبذة الحمراء كما أن كلوس نسطور أحسن البيضاء. والصنف الوحيد الذي تجده في المطعم ليؤكل بجانب النبيذ هو الحمام المشوى على الفحم، وقد اتخذه الكازينو اسمًا له، فإذا أخذت في تناول طعامك أحاطتك - تراقبك بصبر - فرقة من القطط هي حتمًا نتاج تلك التي كان يقدسها الفراعنة، ويظللك وأنت جالس حفيف أوراق شجر الكافور، بينها تنساب بجانبـك – حتى تكاد تلمسها - الفلائك والمراكب ذات الأشرعة تحركها الرياح رائحة غادية تحمل حمولتها من البضائع..

وليست القاهرة مدينة يقصدها المهتمون بفنون الأكل وتـذوقه، فمطاعمها - خاصة تلك الملحقة بالفنادق

أبيض عند خلطه بالماء. وهو معروف باسم أوزو في اليونان. وراكت في تـركيا. وبسمى في
البلاد الأخرى بالعرقي.

الحديثة – تقدم الطعام الغربي المعتاد الذي تتفاوت درجة جودته من جيد إلى متوسط، ثم إنها تقدم لك الأطباق باردة حتى طبق الأومليت، فإذا أصررت – كما أفعل دائمًا – على تقديها ساخنة فأغلب النظن فإنها ستقدم لك شديدة الحرارة تصدك عن لمسها وتضطرك للانتظار حتى يكنك الأكل، والحد من استيراد الكماليات يعني اختفاء بعض الأنواع مثل الجبن الفرنساوي أو الايطالي، ولكن اللحوم المصرية جيدة خصوصًا لحم الضأن الصغير كما أن هناك أنواعًا ممتازة من الأسماك تأتي من البحرين المتوسط والأحمر ويقال إن كمية الفسفور العالية في البحر البحرين البحر الأحمر هي السبب في ضخامة حجم الجنبري

ويكن معرفة بعض الطرق الشرقية في تحضير الأطعمة بتناولها في المطاعم البلدية. وإذا كانت باريس مركزًا تجتمع فيه مدارس الطهى الغربي فإن استنبول هي الأخرى تعد مركز تجمع للطهى الشرقى لا يقتصر عليها فقط بل تمتد فروعه إلى كل الولايات التي كانت تابعة

للإمبراطورية العثمانية السابقة، أعنى اليونان وسوريا ومصر، وإني شخصيًا أضع الطعام المصرى فوق اليوناني وأقل قليلًا من اللبناني، فتجد في المطاعم البلدية الكفتـة والكباب وهما: أشهى أصناف اللحوم ويحضر كل منها من لحم الضأن، أما الكفتة فتحضر بفرم اللحم ثم شيه فـوق شواية، أما الكباب فيشوى اللحم في قطع صغيرة منفردة، وتجد أيضًا الملوخية وهي جـديرة بـأن يتذوقهـا المسرء وهي نوع من الخضروات الغيرويـــة التي سبق أن ذكرنا أن الحاكم - ذلك الخليفة المجنون - قــد حــرم أكلها. وصنف آخر هو طبق المخ والكبد المقليين وتجده في مطعم صغير بالقرب من بـاب اللوق، أما الكـوارع وهي تحضر من حوافر الماشية فلم تمر من بين شفتي ولذلك لا أستطيع أن أحكم عليها..

وتوجد مطاعم كثيرة نظيفة للوجبات الاقتصادية التى يقبل عليها القاهريون، وهى مطاعم الفول المدمس والطعمية. وتصنع الطعمية على هيئة كرات صغيرة من خليط مكون من فتات الخبز والفول المجروش والبصل

وبعض الأعشاب العطرية وتضاف إليه الخميرة ليصير هشًا ناعبًا ثم ترش الكرات بحبات السمسم وتقلى فى الزيت. وفى هذه المطاعم يمكن للشخص أن يتناول كفايته من البطعام بما فى ذلك رغيف بلدى مستدير وسلاطة بما تعادل قيمته حوالى عشرة قروش.

ها نحن الآن قد فرغنا من تناول العشاء، والمعتباد في القاهرة أن تعوض كمية البطعام ما ينقصه من الجبودة. فماذا بعد ذلك؟.

يجيب القاهريون على هذا السؤال بطرق مختلفة ولكن الأمر المعتاد هو أن يقضى النساء أوقاتهن فى البيوت فى حياكة بعض الملابس الخاصة أو فى مشاهدة التليفزيون أو الاكتفاء بالتحدث مع غيرهن من النساء أما الرجال فيتوجه كل منهم إلى مقهاه من ضمن ستة آلاف مقهى منتشرة فى المدينة ليشرب الشاى ويقطع الوقت مع غيره فى لعب الطاولة أو فى مشاهدة التليفزيون أو مجرد الحديث، وهذه متعات تلزمهم الجلوس ولا تنطلق بهم. غير أن الشبان صاروا ينتمون إلى الاندية الرياضية

ليمارسوا بعض الألعاب، وإلا فإنهم يـزحمون الأرصفة عند مداخل دور السينها.

وأمسية الجميس هي أمسية السينها بلا منازع لأن الجمعة هو يوم الراجية...وفي القاهرة اثنتان وتسعون دارًا للسينها يختار المرء منها ما يحلو له، وجمهور السينها في العـواصم العربيـة لايقل حمـاسًا لهـا أبدًا عن أمثـاله في البلاد الأخرى. والقاهرة هي المدينة العربية الـوحيدة التي تبوجد فيها صناعة سينمائية ضخمة فقيد انتجت استوديوهاتها التي تقع على طريق الأهرام أفىلامًا منـذ العشـرينات. وكـان الإنتاج في بعض السنـين يزيـد على مثيله في بريطانيا، الأمر الذي جعل بعض المخرجين الرواد مثل يوسف شاهين يبدى أسف لان الكثرة طغت على الجودة وسلبته المقدرة على الوقوف بجانبها. ويأخذ الفن السينمائي المصرى أسلوبًا واحدًا لا يغيره. ولي تجربة شخصية مع هذه الصناعة عندما كانت تحت السيطرة الرأسمالية، فقد دغتني صديقة لتناول الغداء مع أحد المنتجين الكبار وهو من أصل شامي بـدأ حياتـه في

تصميم زينات لشعور السيدات (وربا كانت جوستين إحدى عميلاته – البطلة الروائية في رباعية لورنس داريل) ثم خصص نفسه لتصميم الأفلام لملايين العرب، وطلب منى قائلا «أريد قصة يامستر ستيوارت تليق بنجمتينا الكبيرتين فاتن حمامة وشادية، وستكلفاني معًا نصف ميزانية الفيلم فلذلك أطلب أن تحتوى القصة على شيء جديد مبتكر». وقد سبق أن شاهدت هاتين السيدتين، إحداها – فاتن – متزوجة من عمر الشيخ في فيلم لورنس، وهي فيها أعتقد أشد المثلات إخلاصًا لعملها، والأخرى – فياة ظريفة تبدو مرحة ولها صوت رفيع.

سألت «أتطلب شيئا واقعيا؟».

فرفع يديه بأظافرهما الملمعة فزعًا وقال «أعوذ بك يا مستر ستيوارت. أرجوك إن جمهورنا من الطبقة الفقيرة وعندهم ما يكفيهم من الواقعية، إنما أريد لهم أن ينطلق بهم خيالهم بعيدًا عنها».

وهذا لا يطابق الواقع كها شاهدت في الأفلام

المصرية، ولكنني كنت في ذلك الوقت محتاجًا إلى المال – كها تعلم بذلك صديقتي – وكان ما عرضه على – مقابــل عشرين صفحة - ما أقنعني. إلا أن صديقًا حذرني ناصحًا: «خذ حذرك فيانهم سيدفعون لك أجرتك عن كل مرحلة من العمل إلا الأخيرة منها» وقد تبين صدق قوله فكنت لا أنال ما أستحقه إلا على أقساط ضئيلة وبعد إلحاح وكلها اتصلت بالمنتج تليفونيًا فـإما أن يكـون «نائهًا» أو «متغيبًا في سوريا». ولما انتهيت من القصة وبقى لى ثلث مــا أستحقه قيــل لى فى نبرة استيــاء «كان يمكن لابني أن يسطر في صفحتين مــا ملأت بــه عشرين صفحة، أما عن لغتك الإنجليزية فإن ابنتي وهي طالبة في الجامعة الأمريكية تقول إن المستر ستيوارت يكتب لغة انجليزية جيدة ولكنها ليست بالإنجليزية الخالصة».

وماذا كان في مقدورى أن أفعل. لقد كنت غير راض عن هذا السيناريو غير الواقعى. ألم أظهر شادية في أحد المناظر وهي محرومة من الأولاد تبكى وفي يدها كتاب مفتوح من كتب الأطفال جالسة على أريكة من طراز

لويس السادس عشر، فإذا انتهى هذا المشهد المرسوم، تجف المدموع وتتحول إلى بسمات ونسرى شباناً فى سياراتهم وطائراتهم ثم تنتهى بهم حبكة القصة بغسل الدموع بالغناء والرقص. وقد مثلت كل من فاتن وشادية دورها جيدًا.

وقد مثلت فاتن أيضًا في فيلم «دعاء الكروان» وهي تراجيديا تدور وقائعها في الصعيد ألفها الأديب الكبير الدكتور طه حسين. وأخت فاتن في القصة يغويها محام فتنهض هي للانتقام منه، وكان النصف الأول من الفيلم واقعيًّا إلى درجة تنظهر فيه الأقدام حافية تحوطها الخلاخيل. الأمر الذي لم نسمع به من قبل. وهبط النصف الثاني، وفيه نرى المحامي يصطحب فاتن التي نراها في زي سيدات الزمالك – إلى نزهة على شاطئ البركة، وهو ما لا يخطر مطلقًا على بال أحد في الصعيد المحافظ.

ولعبت شادية بعد ذلك دور فتاة من بنات الليل في حسن فيلم - في رأيس - أنتسج إلى الآن، هسو فيلم

«اللص والكلاب» كتب قصته نجيب محفوظ حول شرير تـطارده الصحافـة، وهو سفـاح أصيب بلوثة وانتهى بــه الأمر بأن حوصر وقتل بالرصاص تمامًا مثل ما حدث للمجرم الأمريكي ويللنجر. وقد رمز نجيب محفوظ بهـذا القاتل عن الشخص الحديث الحائر الذي خانه مرشده وتخلى عن ميادئه. ومن العجب أن هذا الفيلم قد خلا من مواقف المرح المصطنع والفقرات الخطابية الجوفء، فجاء السيناريو سريع الحركة قاسيًا مثيرًا قليل الحوار.. ولم يكن سبب انحراف البطل تافها فقد دفعه إليه - أثناء عمله كخادم في بيت الطلبة - طالب يساري لا يقيم وزنًا للقيم الـروحية. وكمان هذا الـطالب يعتقـد أن المبـادئ الاخـلاقية قـد بليت وعفى عليها، وأن اللص في البـلاد الرأسمالية حينها يسرق إنما هو شخص تقدمي، وهي أفكار قد عفى عليها في الغرب ولكنها لا تزال تأخذ بقلوب بعض الأشخاص. إلا إن هذا السطالب يغدو صحفيا ناجحًا ويتزعم حركة مطاردة تلميذه المذي طبق دروسه بحسن نية، ثم ينشرح صدره عندما يبلغه نبأ مقتل المجرم. صرعه رجال الشرطة برصاص المدافع الرشاشة

بجوار جدران جامع الجيوشي. ولم يبكه أحد سوى بائعة الهوى.

وهناك علامات توحى بأن الأسلوب المعتاد الـذي يسيطر على قصة الفيلم المصرى لم يعد له مجال كبير، وظهرت مناقشات في الصحف كان اتجاهها ضد الاعتماد على أسهاء النجوم فقط لما تبين - كما أخبرني صديقي المخرج - أن ذلك كان يستغرق الجزء الأكبر من ميزانية الفيلم الضئيلة (حـوالي ٢٥,٠٠٠ جنيهـا) فـلا يبقى إلا القليل لكاتب السيناريو وبقيئة الفنيين المتخصصين، كها أن أكثر النجوم ليست لهم قدرة فنية كبيرة، لأن خبرتهم في التمثيل نبعت نتيجة لاجتهادهم الشخصي، ولم تنبع نتيجة للتدريبات المنتظمة في دور التمثيل التعليمية، وقد يقفز أجر الوجه الجديـد المبتدئ.. وإذا لقى حــظوة لدى الجماهير من ١٥٠ جنيهًا في الفيلم الأول إلى ألفين من الجنيهات في الفيلم الثاني، ثم يملأه الإطراء بـالغرور طول حياته، ما لم يكن – مثل عمر الشـريف – صاحب موهبة حقيقية.

ويمكن القول بأنه لن يتم إنقاذ الفن السينمائي المصرى والنهوض به إلى المستوى الذي يجعله جديرًا بالتقدير في الدوائر السينمائية العالمية إلا عن طريق النهضة المسرحية التي تعد الظاهرة الثقافية الكبرى في مصر والتي استمرت قوية منذ ظهورها في أوائل السبينات.

وقد ظهر التمثيل المسرحى في مصر في نهاية القرن التاسع عشر واستمر بشكل أو بآخر حتى سنة ١٩٥٢ فلا نجد فيها سوى مسرحين جادين فقط، أما الآن فهناك ما لا يقل عن ثمانى عشرة فرقة مسرحية تعمل على أربعة عشر دارًا مشيدة للتمثيل، وهذه الفرق قابلة للزيادة وتختلف المسرحيات التى تقدم على مدى واسع ابتداء من الكوميديات المحلية التى تتخذ فيها عناوين مثل «بابا ما يعرفش» إلى ترجمات من بيكت ويونسكو. ومن هذه المسارح مسرح الجيب الذى أنشئ ليعرض المسرحيات العالمية الطليعية، كما أنشئ مسرح توفيق المسرحيات العالمية الطليعية، كما أنشئ مسرح توفيق الحكيم ليعرض مسرحيات الكاتب المسرحى الأول في

مصر، وكذلك أنشئ معهد عال للفنون المسرحية يتخرج منه مناون شبان يجد كل منهم عملاً - بضمان من الحكومة - حال تخرجه. وقد أجريت حديثًا مع الوزير المسئول عن الثقافة في مكتبه في أحد الأدوار العليا من مبنى التليفيزيون العربي على النيل مندوبًا عن هيئة الإذاعة البريطانية شرح فيه اتجاه الحكومة نحو الثقافة فقال:

«منذ قيام الثورة صارت مقاليد الحكم في أيد مصرية صميمة، وذلك لأول مرة منذ العصور الوسطى وهدف الحكومة هو تعميم حد أدنى من الثقافة بين جماهير شعبنا جميعًا، ولا تبرر إقامة شخص في أسوان أو حتى في واحة سيوة أن يكون بعيدًا على يجرى حولنا في العالم الحديث، بل يجب أن يكون على بينة من ذلك، إما بقراءة الصحف أو حتى بمشاهدة التليفزيون، ونحن سنوجه مجهودنا الأكبر - بدون أن نستحى من ذكر ذلك - إلى الجمهور الكبير لأننا نعتقد أنه عندما يتمكن جميع أفراد الشعب من معرفة القراءة والكتابة وأن يعمهم جميعًا حد أدنى من الثقافة فقد كونا بذلك قاعدة عريضة قوية يمكن أن نبنى

فوقها إلى أن ينتهى بنا البناء إلى قمة هرمية من الكفاءة العالية»

وهذه المحاولة الواعية لجعل القاهرة مركزًا لـلإشعاع الثقافي لجميع أنحاء البلاد ينظهر واضحًا في الموسيقي، وبشكل أوضح في الغناء. وقد كانت الكلمة طوع فصاحة العرب دائلًا، وفي نفس الوقت تؤثر بسهولة على عواطفهم. وكان الشعير هو الفن الصحيراوي القد، وفي مصر المثقفة تغلغلت أغباني أحمد شبوقي وأحمد رامي الشعرية في الجماهير العريضة باستماعها إلى صوت سيدة فريدة هي السيدة أم كلثوم، ولها معجبون في العالم العـربي كله. وقد كـان من عادتهـا أن تقيم حفـلاتهـا في الخميس الأول من كـل شهر فتمتـلئ المقاهي من بغـداد إلى مراكش انتظارًا لأغنيتها الجديدة. ويوجد في القاهرة بالقرب من ميدان التوفيقية مقهى أم كلثوم، وهو من ثلاثة طوابق، الأرضى منها مفتوح على الشارع وهو مقهى عادى بأنواره وضوضائه، والطابق الثاني خافت النور وبه مسجل للصوت ينساب منه صوت أم كلثوم

قويًا يستمع إليه شباب من الطليعة وموظفى الحكومة والجنود ساعات متواصلة وهم جالسون يرتشفون القهوة في هدوء، أما الطابق العلوى فالنور فيه أشد خفوتا يجلس فيه المدمنون على الاستماع في خشوع تام حيث تعتبر مجرد الهمسة بخسًا في محراب الفن.

أما بخصوص الفنون الشعبية فقد اتجه تشجيع الدولة لها نحو التهذيب دون البتر أو الحجر أى - على حسب التعبير الفرويدى - إن الدولة اخذت وظيفة الأنا (السوبر ايجو) أى النفس الحكيمة التى تضبط وتنظم «الإد» أو الغرائز اللاشعورية التى تهيمن على الجماهير. وقد طبق هذا التهذيب على الرقص.

ولكى ندرك هذا الموقف يجدر بنا أن نرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما ألف لين كتابه عن عادات المصريين. ففى ذلك الوقت ذكر لين أن الراقصين كانوا صنفين: الأول منها يتكون من الغوازى وهن نساء قبيلة معينة كن يرتدين عند الرقص زى السيدات التركيات الأنيقات فى ذلك العهد، وهو عبارة عن سراويل واسعة

وصديرية وحزام يغطيها كلها قفطان ذو أكمام مدلاة مشقوقة، ويضعن فوق رءوسهن قلنسوة منبسطة. وقد تتبع لين أصولهن حتى العصر الروماني. وكن مطلوبات للرقص أمام الضيوف الرجال في حفلات الزفاف. وكتب لين الوقبور «أما عن رقصهن فيكاد يكون خاليًا من الأناقة، وأهم ما يميزه هو هز الأرداف هزًّا سريعًا من جانب إلى آخر».

وحيث أن التقاليد المحافظة النابعة من الدين في ذلك العهد كانت لا تسمح باختلاط الجنسين، فها بالك برقص النساء أمام الرجال حتى ولو كن من طائفة احترفت هذه المهنة من قديم الزمان. فإن ذلك استدعى ظهور الصنف الثانى من محترفى الرقص للتغلب على هذا الاعتراض واعتبره بعض الغيورين أفضل قليلا من الاختلاط. وهذا الصنف يتكون من رجال من أهل البلاد يتزيون بنزى النساء وينتحلون شخصيتهن، وعلى ذلك يؤدون نفس الحركات التى وصفناها عند ذكر رقص الغوازى، وعلى نغمات الصاجات مثلهن تمامًا. رحتى لا يشتبه على نغمات الصاجات مثلهن تمامًا. رحتى لا يشتبه على

البعض فيعتقد أنهم من النساء حقيقة فقد تخير هؤلاء الراقصون لزيهم لباسًا يتفق مع مهنتهم غير الطبيعية، يخلط بين ملبس الرجال وملبس النساء، ويتكون عادة من صديرية ضيقة وحزام مع نوع من «الجونلات».. إلا أن منظرهم العام يـوحى بأنــه نسائى أكــثر مما هــو رجمالي لأنهم يطلقون شعورهم ويجدلونها – كمها تفعمل النساء - على شكل ضفائر نسائية، وينتفون شعر الوجه عندما يبدأ في الظهور، وكانوا يقلدون النساء أيضًا في تكحيل العيون وصبغ الأكف بالحنة، ثم إنهم بعد الانتهاء من أداء رقصاتهم، يتحجبون أثناء سيرهم في الطرقات لا استحياء من مهنتهم بل إحكامًا في تقليد النساء. وكثيـرًا ما كـانوا يفضلون عـلى الغوازى للرقص أمـام الدور أو في أفنيتها الواسعة في مناسبات الزواج أو إنجاب الأولاد أو الختان، وكثيرًا أيضًا ما كانوا يزاولون مهنتهم في المهرجانات الشعبية العامة.

 مرحلة من تطور رقص الغوازى، وبدلة الرقص ليست من تقاليد البلاد في شيء، إغا هي اعتقادات خاطئة في أذهان بعض مصمعي الأزياء الأوروبيين ابتدأت عندهم عند عرض منظر الرقص في أوبرا «عايدة». وهذه البدلة تيدي جزءًا عباريا من الجسم بين غطاء الصدر النحاسي اللون وبين الجزء السفلي الشفاف، وفي عهد فاروق كان كل معجب براقصة يسرمي تحت أقدامها بعملات ذهبية رقيقة كصفائح الصفيح فتأخذ كل راقصة ما يلقى عليها من عملات وتثبتها في بدلة رقصها كالترتر،

وكانت المنطقة العارية من البطن أول ضحايا «التهذيب» الحديث، فصدر قرار بعد الثورة بوجوب تغطية هذا الجزء من البطن بالشاش أو بالتل، وحاول - عبشًا - بعض ذوى الأفكار النظرية خلق نوع من الفن «الخالص» من هذه الرقصة المثيرة للغرائز والتى تأخذ في أسوأ حالاتها شكل هزات كأنها الرعاشات على توقيعات سريعة من ضربات متلاحقة من الطبول.

وكثيرا ما نجد عازفًا كفيفًا في الفرقة الموسيقية ولا يقتصر أداء رقص البطن على النوادى الليلية مثل الموجود في فندق هيلتون، بل يمكن مشاهدته في أى حفل زفاف في المدينة حيث تهتز البطون العارية مع نفس الحركات والإيماءات المتوارثة كما كانت من قبل على الدوام. ولا يزال في الإمكان استخدام الراقصين الرجال المتزيين بزى النساء، وقد تركوا شواريهم تكبر وشعورهم تنمو إلى جدائل طويلة وينتفون حواجبهم وصاروا يعرفون الآن باسم «أبو الغيط» بدل اللقب الذي كان يطلق عليهم سابقًا لأنه صار الآن نوعا من الشتائم والإهانات ذلك أنه أصبح يطلق على المخنثين من أصحاب الشذوذ الجنسي.

وإذا كانت الغوازى والمتشبهون بالنساء مظهرين من مظاهر «الإد» أو الغريزة فإن فرقة رضا للفنون الشعبية تحظى بالقبول لدى «السوبر ايجو» أو «الأنا» وكان السبب في تكوينها أن فرقة أوبرا بكين زارت القاهرة بعد اعتراف مصر بالصين الشعبية مباشرة، وعند وجودها في

القاهرة قدم السفير الصيني دعوة «لفرقة مصرية راقصة» أن تزور بلاده. وسببت هذه الدعوة حرجًا حيث لا يمكن التفكير مطلقًا أن ترد الزيارة فرقة من الغوازي أو المتشبهين بالنساء، ومن ناحية أخرى لا تـوجد فـرقة أخرى صالحة ولكن لم يلبث هذا الحرج طويّلا حيث بادر كل من محمود رضا وزوجة أخيه فريدة فهمي وكونا فرقة راقصة بسرعة تستحق الإعجاب، ونالت هذه الفرقة شهرة عند الجماهير نتيجة لحبهم إياها. وقد تكونت هذه الفرقة في مبدأ أمرها من طلبة جامعيين (وقد سبق لمحمود رضا أن قام بالرقص لمدة عام في باريس مع فرقة الفريدو الاربا الأرجنتينية الراقصة). وكما جاء في جريدة «الآراب اوبزرفر» عن الفرقة فيإنها «قدمت من سنين عديدة بالية كامُلا باسم «عروسة النيل» تحكى قصة عاشقين قرويين - على غرار روميو وجولييت - ولكنها تنتهى نهاية سعيدة. وصار هذا البالية محور عروض الفرقة في تجوالها في ألمانيا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفيتي حيث قدمت سبعة وعشرين عرضًا، واشتركت الفرقة في يوغو سلافيا في مهرجان للرقص

الشعبي وحازت على الجائزة الأولى»

أما الفن الشعبي الآخر وهو القراجوز فقد تغير هو أيضًا تغييرًا شامًلا مماثلًا لمما حصل للرقص وهمو يشبه عروض بانش وجودي في بريطانيا، وكلمة قراجـوزوهي كلمة تركيـة تعنى «العيون السـود» – كانت اسـماً لأحد مهندسي صلاح الدين، ولكن لا نعرف كيف أطلقت على هـذا الفن الذي تتوه بنا أصوله الأولى عنـد السهـول الصحراوية على مشارف الصين. وكان القراجوز يعرض على طزيقة خيال الظل فكانت عروضه لا تقام إلا ليّلا كها ذكر لين في كتابه المذكور. وقد عثر على مجموعة جميلة من عرائس القراجوز في حفريات في الفيوم (على بعد ساعة بالسيارة من القاهرة) وهي موجودة في برلين، وقد صنعت في القرن السادس عشر لتسلية أحد البكوات المماليك. وتمتاز بيريه في اليونان الآن بعروض القـراجِوز في شكل خيال الظل وعلينا أن نتوجه لهذه المدينة إذا رغبنا في مشاهدة هذا العرض فنشاهد أشكالاً شفافة ملونة مصنوعة من الرق وهي تلعب كوميديات غالبًا

ما تكون مخلة بالآداب، أما في القاهرة فلا يرال القراجوز يطلق على عرض للعرائس مثل «بانش وجودى» تصاحبه جلبة عالية، ويطوف في شوارع المدينة بصحبة بعض البهلوانات وعازني الصندوق الموسيقي - البيائؤلا - الذي تزينه صور سيدات على الطريقة النابولية. وأعرف شخصيًا اثنين ممن يحتـرفون هـذا الفن من العرائس القفازية الذين سرعان ما يجذبان جمهورهما بأصواتهما ذات النبرات العالية نحو كشكيهما ذوى الألوان المبهرجة، ويندمج الأطفال في بعض الأحيان مع هذه العرائس إلى درجة أن يقفر من بينهم طفل يحاول أن يقرص واحدة منها تحت السرة تكون قد أثبارته، الأمر الذي يبعث السرور عند مرتشفي القهوة الجالسين على شرفات المقاهي.

وكما أمكن تهذيب رقص الغوازى والمتشبهين بالنساء إلى فن من الرقص الشعبى، كذلك أمكن تطوير القراجوز إلى مسرح للعرائس تحت إشراف وزارة الثقافة. وكانت فرصته التي ساعدته على الظهور إنشاء

مسرح خاص بأنواره التي يمكن التحكم فيها. وفي ينايــر سنسة ١٩٦٣ ألف صلاح جساهين - أحسن رسسامي الكاريكاتير وأضخمهم أيضا - رواية «حمار شهاب الدين» لهذا المسرح، وهي قصة خـرافية وقعت حـوادثها في بغداد ولكن على أحدث التقاليد. وكانت الإضاءة بديعة وتحريك العرائس بارعًا. ولكن بالـرغم من براعـة صلاح شاهين كزجال وليس كرسام كاريكاتوري فقط فإن من كتبت هذه الرواية تحت رعايتهم اشترطوا عليه ألا ياتي بأي فحش في القول أو عنف أو نكات ذات ثورية. فكان هذا الوقار سببًا في فقدان كثير من المميزات الخاصة بهـذا النوع من الفن والتي نجـدها في العـروض الشارعية. وهذه الأخيرة التي لا تنتفع بأية مساعدة مالية من الدولة تذكر - أو هي تعرف بالغريزة - بديهية دورانتي أستاذ فن العرائس العظيم في القرن التاسع عشر الذي يقول فيها «ما تؤديه العرائس هو أهم ألف مرة مما تنطق به».

الفضال لثالث عشر

العلم والتعليم

غُرفَتُ القاهرة طوال ألف سنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم في أفريقية، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام ميزة خارقة، ذلك لأنها صدارة على عدد قليل جدًّا من معاهد العلم في تلك القارة. ولكن هذه الميزة زادته جدارة في المائة السنة الأخيرة.

وياتى تفوق القاهرة فى مضمار نشر العلم نتيجة والإنشاء الأزهر فى السنة التالية لدخول الفاطميين إلى مصر، وكان انشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والإسلام وأفريقية، فحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل فى قيام الأزهر ونذكر اسمه كامًلا فهو جوهر

الكاتب الصقلى^(١)، وينطق المصريون الجيم في اسمه جامدة ولا يعطشونها كها تعطش في كثير من البلاد العربية.

وقد اتسع الأزهر (جامع الأزهر) كثيرًا على مذى الأعوام والقرون، أما الجامع فيحتوى على تعويذة عجيبة، وهي عبارة عن رسم لطيور موجودة في أعلى أعمدة ثلاثة من أعمدته، وذلك من أجل منع الطيور الحية من اتخاذ أعشاش لها داخل مبانيه. وكها بنيت كليات أكسفورد أصلًا حول الكنائس والمحاريب (ولم تغطر فكرة إنشاء بيوت مخصصة لمعيشة الطلبة إلا فيها بعد) فكذلك كان المسجد هو النواة التي امتد الأزهر حولها فخرج عن نطاق التعويذة وأصبح لا شيء يحول دون زقزقة العصافير أن تنازع انصراف الأساتذة إلى القاء محاضراتهم. ولكن على حين أن أكسفورد – التي قامت بعد الأزهر – أخذت تتقدم وتتطور أسريعًا بعد

 ⁽۱) معروف في كتب التاريخ العربية بجوهر القائد الصقلى لا بجوهر الكاتب.
(المترجم) فهو صاحب السيف الذي فتح مصر للفاطميين.

القرن السادس عشر فقد بدا أن الأزهر ظل راكدًا، كبلته التقاليد الموروثة وإن اعترف لها بأنها تشتمل على معاسن كثيرة، ولا يزال العلم في الأزهر يبروع زائره إلى اليوم حين يرى أستاذًا مبجلا مهيبًا يتحلق حوله تلاميذه وهم قعود على الأبسطة في الجامع الكبير، ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلفيًا فهى مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقه الإسلامي.

أما الطلبة أنفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم، ولكل قسم مكانه الخاص به، للإقامة والدرس داخل الأزهر، وتسمى أمكنة الإقامة بالحارات وأمكنة الدرس بالأروقة. والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة. وإليك بيان أقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر: رواق الصعايدة (مصر العليا) - رواق المجاورين (مكة والمدينة) - رواق أبناء السودان ودارفور - رواق الشوام - رواق أبناء السودان أبناء الأفغان - رواق المخاربة (شمال إفريقية) - رواق أبناء الصومال - رواق

الاتراك - رواق الأكراد - رواق أبناء الهند - رواق أبناء بغداد – رواق أبناء النوبة – رواق أبناء الـواحات والفيوم. أما الإيرانيون فلم يكن يقد منهم أحد لتمسكهم بالمذهب الشيعي، فالأزهر وإن نشأ على مذهب الشيعة قد تحول إلي مذهب أهل السنة بعد زوال حكم الفاطميين. حقاً هيهات أن نجد في الماضي أو الحاضر جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم (كالكاثوليكية في المسيحية) تضم مثل هذا الحشد الهائل من الطلبة الذين يضمهم الأزهر من بلاد مختلفة. أما تأثير الأزهر -حتى في أيسام تخلفه - فعسظيم، لأن أئمة السدين في المجتمعات الإسلامية المختلفة في أنحاء العالم اتخذوه منارًا وعدوه ينبوعًا لأصول الدين قبل تفرق المذاهب (كالأرثوذكسية في المسيحية).

وهناك مرحلتان رئيسيتان مسر بهها الأزهر في محالة تجديده ليلائم العصر، الأولى بتأثير من الشيخ محمد عبده في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، إذ جعل للأساتذة مرتبات ثابتة دائمة، وأضاف بمجهوداته كليات

جديدة. أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثـورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الأزهر يعودون إلى كل ركن من أركان أفريقية وآسيا غير مؤهلين إلا لتدريس الدين واللغة العربية، ورأى الرئيس جمال عبد الناصر ومستشاروه أن في استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة - كل واحــد منهم في موطنه - لا باقتصاره على تدريس العلوم الدينية وحدها، بل كذلك بتدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية.. إذن يجب على الأزهر أن يكون معهدًا تقدميًا يساير العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية، فبفضل هـذا التـطور يتحقق الصالح العام للعالم الإسلامي. فكان إن ظهرت حركة تشابه تلك التي انتجت القسيس العامل خارج كنيسته للخدمة العامة عند الكاثوليك. والآن نرى الهنـدسة وبقيـة العلوم تدرس لـطلبة الأزهـر، كما سمـح للبنات بالالتحاق به، وهو أمر لم يكن يتصوره أحدحتي في الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر.

وفي سنـــة ١٩٦٤ أعلنت خطوة جـــديدة جـــذرية وهي

مشروع إقامة جامعة جديدة للأزهر على مساحة ٥٠٠ فدان فى مدينة نصر، وهى ضاحية سريعة النمو لها إدارتها الذاتية وتقع شمال العباسية، كها ستخصص ١٥٠ فدانها أخرى فى القبة لإنشاء كلية إسلامية للبنات تابعة للأزهر.

إن تطور الأزهر وهبو يضم ٤٠ ألف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا إنما هو – من أحد الجوانب – نتيجة تحد من نظام تعليمي آخر في مصر، نظام علماني صرف، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة، ويدرسون وفقًا لمنهج سلفي لم يتبدل إلا قليلا منذ القرون الوسطى، تدفق سيل آخر يرتدى الملابس الإفرنجية ويدرس علوم المندة والاقتصاد السياسي، ولم يكن بين التيارين الإطلاق.

وتسرجع هذه الثنائية في نظام التعليم إلى المدارس العسكرية التي أنشأها محمد على، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر، منذ إنشاء دار العلوم سنة ١٩٢٧ إلى إقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧، وإمداد

خهده المعاهد العليا بالطلبة يستند إلى نظام تعليمي بين ابتدائي وثانوي .. هو الآن اجباري وبالمجان ونسبة الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين أتموا الدراسة الثانوية هي أكبر من مثيلتها في بريطانيا اليـوم، ولكن هذا لا يعني أن المستوى يـرتفع إلى نفس الـدرجة أبـدًا، ولكن إحصاءات التعليم عن سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ توضح مدى انتشاره فمثلا بلغ عدد الطلبة في المدارس ٦٠٨ ألف طالب منهم ٢٦٢ ألفًا من الطالبات، ويبلغ مجموع عدد الطلبة الملتحقين بالدراسات الجامعية دون الدراسات العليا في جامعتين في القاهرة من أربع جامعات (جامعة القاهرة التي حل اسمها محل جامعة فؤاد، وجامعة عين شمس) ٧٢,٩١٣ طالبا منهم ١٦ ألف طالبة أو أكثر قليـالًا، وهـذه الأرقـام وإن بينت أن النسـاء لم ياً خذن قسطهن في مجال التعليم كاملاً، إلا أنه يبين في نفس الوقت سرعة انتشار تعليم البنات. وكل النساء اللاتي يقمن بدورهن المتزايد الفعال في الحياة المصرية خريجات هذه الجامعات، وخير مثل منهن هي حكمت أبو زيد الوزيرة (السابقة) للشئون الاجتماعية التي كان من

أعبائها أن تنشئ ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل في جميع أنحاء الجمهورية.

ولأن القاهرة ترى نفسها مركزًا تعليبيًا لإفريقية، فإنها - فضلًا عن منح عشرات الألوف من الشبان والشابات الافريقيين منحًا دراسية في معاهدها - تستغل قوة الإذاعة التعليمية فتذيع من محطة الإذاعة المصرية «برنامج صوت أفريقية» يوميًّا باللغات الأمهرية والسواحلية، واللنجالا والسيسوتو، والنيانجا، والصومالية، والفولانية، والهوسا، وأخيرًا باللغتين الإنجليزية والفرنسية لمن لم تكن لغته إحدى هذه اللغات.

الفضل لرابع عشر

القاهرة.. والفراعنة

يكن أن يعتبر هذا الفصل القصير سلبيا، فليست القاهرة فرعونية في شيء ولكنها تحوى المتحف المصرى في ميدان التحرير، ويضم أفخر مجموعة من الآثار المصرية في العالم. ويكنك في مقابل قرشين التجول في أكثر من مائة غرفة فيه تضم بقايا مدنية ابتدأت منذ عرف الإنسان معيشة المدن. وير سيل لا ينقطع من الزوار من كل أنحاء العالم أمام أثاث توت عنخ آمون المتين أو يواجه موميات رمسيس الثاني وسيتي الأول (وكانت الموميات في عهد فاروق محجوزة عن أعين السواح، فقد اعتبر هذا إلملك هؤلاء الفراعنة ملوكا سابقين يجب أن

تضفى عليهم جلالة الملوك، أما الجمهورية الديمقراطية فقد سمحت - نظير رسم قدرة ٢٥ قرسًا - بدخول القاعة رقم ٥٢ حيث تعرض الموميات حاليًا)، ويفخر القاهريون بمتحفهم ويعتقدون أنه السبب الرئيسى لحضور ٤٠٠,٠٠٠ زائر سنويًا للبلاد. ولكن الأساء التي أشرفت على هذا المتحف ليست مصرية فقد أنشأه أوجست مارييت الفرنسي وصمم مبائيه نارسل بورجنون عالم المصريات، والدراسات التي بدأت بأوروبيين أمثال شامبليون ومارييت لم تشمل المصريين بأعداد كبيرة الخيرًا..

وإذا كانت القاهرة مدينة إسلامية وليست فرعونية، فإنها في نفس الوقت مركز باهر للدراسات الفرعونية. وترجع جاذبيتها العظمى في هذا المجال - حتى للسائح الخالى البال - إلى قربها من الجيزة وسقارة. وهناك عرض بالصوت والضوء عند الأهرام يقام كل ليلة يسترجع ألوف السنين التي سبقت البطالسة. ويستقبل أبو الهول - وقد تجلى بعد إزالة الرمال من حوله - اشعة

الشمس كل صباح على جبينه وهو يحدق بلا مبالاة ناحية المدينة. ويمكنك أن تشاهد - وأنت واقف على جبل المقطم عند الضاحية الجديدة - سلسلة من الأهرامات تمتد جنوبًا حتى نهاية البصر. وإذا وصلت إلى محطة القاهرة قادمًا من الإسكندرية أو بور سعيد فستشاهد خارجها تمثالًا ضخمًا لرمسيس الثانى - الذى اكتشف قريبًا في سقارة - واقفًا وحيدًا مديدًا تخرج من أقدامه نافورات من المياه

ولكن التأثير الـواضح للفـراعنة عـلى القاهـرة هو محاكاة لتصميماتهم ونقوشهم تزين بها قاعات المـطاعم أو ترسم على بعض الأقمشة.

ولعلى أكون مخطئًا فى ذلك. فهناك تأثير إيجابى فرعونى واضع، ذلك أن الشابات يضعن الكحل حول عيونهن التى هى واسعة أصلًا. كما أنهن - بحيلة فنية - يتوصلن إلى إرسال شعورهن السوداء على نمط شعر نوفرت الجالسة على الدوام بجوار زوجها الأمير رع حتب فى الغرفة رقم ٣٢ بالدور الأرضى فى المتحف.

وبهرش

صفحة	
٣:	هذا الكتاب
: القاهرة الكبرى للدكتور جمال حمدان ١١	مقدمة
: القاهرة بنت الصحراء	الفصل الأول
: القاهرة بنت النيل	الفصل الثانى
: القاهرة أم الألوان العديدة ١٤٠	الفصل الثالث
: القاهرة الطابع البلدى	الفصل الرابع
: القاهرة الطابع الإفرنجي١٥٧	القصل الخامس
: القاهرة والأرستقراطية١٦٦	الفصل السادس
: القاهرة الطابع النوبي ١٦٩	القصل السابع
: المقاهرة منازل الاموات١٧٢	الفصل الثامن
: القاهرة ظلال من مقدونيا	الفصل التاسع
: القاهرة طابع الأجانب١٩٣	الفصل العاشر

صفحة

۲۰۱	: القاهرة الطابع الإسلامي	لفصل الحادي عشر
۲۳٥	: القاهرة والأمسيات	لفصل الثاني عشر
Y09	: العلم والتعليم	لفصل الثالث عشر
Y7Y	: القاهرة والفراعنة	لفصل الرابع عشر



TADE

14AY/YOYY		رقم الإيداع	
ISBN	1771-1144-4	الترقيم الدولى	
	1/46/417		

طبع عطايع دار المعارف (ج.م.ع.)